الكتب والمكتبات فى بلاد اليونان القديمة

من حقبة ما قبل سقراط حتى الحقبة الكلاسيكية

أ.د. شعبان عبد العزيز خليفة

قسم المكتبات والوثائق والمعلومات

كلية الآداب – جامعة القاهرة

من المتفق عليه أن الشعوب اليونانية كانت عبارة عن قبائل رعوية زراعية وكانت أقرب إلى الدول المدن منها إلى الدولة الموحدة ، ولذلك كانت المعلومات تنتقل بينهم شفاهة وعن طريق التواتر . ومن الثابت تاريخيا أنهم قد أخذوا الخط الذى كتبوا به من الفينيقيين (الكنعانيين) فى مطلع الألف الأولى قبل الميلاد . ومن اليقين أنهم أخذوا علومهم عن المصريين فى الأعم الأغلب وطوروا ما أخذوه وصنعوا فن حضارة خاصة عرفت بالحضارة اليونانية تلك الحضارة التى بدأت فى الازدهار فى القرنين السادس والخامس قبل الميلاد . وكان الإغريق قد استعاروا من مصر أيضا المادة التى كتبوا عليها وأعنى بها ورقة البردى . وحيث كان البردى مستخدما فى الكتابة منذ الألف الثالثة قبل الميلاد ، وكانوا قبل استخدام البردى يكتبون على موارد بيئية ، وعلى قطع الفخار .

ولو أننا بهدوء شديد حللنا الشواهد التى تقدمها لنا المصادر المختلفة العائدة إلى مطلع القرن السادس قبل الميلاد فى اليونان والتى تحوى محاولات الإغريق الأولى لوصف كنه العالم والهدف من الوجود الإنسانى ، وتلك المصادر هى بالدرجة الأولى كمية ضخمة من الأشعار وكمية محدودة

للغاية من الأعمال الفلسفية الفجة ، إذا حللناها فإنه يمكن القول بأنه كانت هناك فى بلاد اليونان خاصة حركة تأليف للكتاب وحركة نسخ منظمة لها بل وتجارة رائجة لها اعتبارا من القرن الخامس قبل الميلاد . وحتى فى الحقبة الكلاسيكية كانت هناك متاجر كتب ومناسخ لنسخ الكتب بل وقراء يقرأون الكتب ، ومن المؤكد أن المؤلفين الأفراد كانوا يستعينون بتلك الكتب فى استقاء المادة العلمية لمؤلفاتهم ، سواء أكان هؤلاء المؤلفون شعراء أم فلاسفة. كذلك وجدت فى بلاد اليونان فى ذلك الوقت قاعدة من القراء وإن كانت محدودة .

ويمكننا تتبع أصول الكتاب اليونانى وخاصة الكتاب الفلسفى والأدبى الذى كتب على ورق البردى بدرجة من اليقين فى أيونيا ومناطق شواطئ بحر إيجة فى آسيا الصغرى حيث كان هناك احتكاك واضح وتأثر مباشر بشعوب الشرق الأدنى ، وخاصة مصر التى كانت مصدر ورق البردى منذ الألف الثالثة قبل الميلاد. لقد تطورت الثقافة والفكر منذ زمن أورفيوس وهوميروس (القرن الثامن قبل الميلاد) وبعدهما كان هناك ثاليس من ميليتو س أول عالم – فيلسوف يونانى وزميلاه أناكسيماندر وأناكسيمنيس الذين كتبوا دراساتهم وثمرة بحوثهم فى القرن السادس قبل الميلاد . كذلك أودع هيراقليتوس كتاباته فى معبد أرتيميس فى إفيسوس .

لقد وجدت مكتبات عامة فى بلاد اليونان فى تلك الحقبة (السادس والخامس قبل الميلاد) مما يدل دلالة قاطعة على وجود إنتاج فكرى يستحق أن يوضع موضع الاستخدام العام وتكشف المصادر عن أن فلاسفة المدرسة الإليانية بمؤلفاتهم التى سجلوها على أوراق البردى هم الذين أوعزوا إلى بوليكراتيس حاكم ساموس بإنشاء مكتبة عامة فى عاصمة الجزيرة . ويؤكد هيرودوت أن بوليكراتيس كان حاكما قويا بسط سلطان مملكته على كثير من الدول المجاورة والمدن الموجودة فى بلاد اليونان الأم ، كما عقد صداقة مع

ملك مصر أماسيس . لقد كان بوليكراتيس راغبا فى إضفاء لمسات الجمال والشهرة على جزيرته ولذلك قام ببناء المبانى العامة الضخمة ورعى الفنون والآداب وجمع فى بلاطه فلاسفة وشعراء زمانه .

ويذكر أثنايوس حاكما آخر فى نفس الفترة اهتم بإنشاء المكتبات العامة هو حاكم أثينا الذى وصل إلى الحكم هناك لأول مرة سنة ٥٦٠ق.م ؛ هذا الحاكم هو بزيستراتوس الذى أنشأ أول مكتبة عامة فى أثينا . وربما يكون الدافع إلى إنشاء تلك المكتبة العامة تلك المنافسات التى كانت تعقد بين شعراء الملاحم أمام الجمهور والتى ظهرت فى القرن السادس قبل الميلاد كجزء من مهرجان باناثينيا . لقد كان شعراء الملاحم يقومون بالقاء شعرهم الملحمى كل شاعر يلقى جزءًا ويأتى الذى بعده ليلقى جزءًا ثانيا يبدأ من حيث انتهى الأول ويأتى الثالث ليلقى جزءًا ثالثا يبدأ من حيث انتهى الثانى وهكذا طبقا لإجراء ثابت ونظام محدد سلفا . وهذا الإجراء كان يفرض بالضرورة وجود نص ثابت يتبع فى هذه المسابقة . وكان لابد من إيداع نسخ من ملاحم هوميروس في ما يبدو أول مكتبة عامة فى أثينا .

ويذكر ديوجينيس لايرتيوس فى القرن الثالث الميلادى أن سولون هو صاحب فكرة المكتبة العامة (وقد عاش سولون فى نهاية القرن السابع وأوائل السادس قبل الميلاد) وأن بزيستراتوس قد التقط الفكرة بعد نصف قرن من الزمان ونفذها وأقام المكتبة ، كذلك يغرى إلى بزيستراتوس فكرة ملاحم تعريض ملاحم هوميروس لمراجعات نقدية وإن كان بعض الثقاة يرون أن ذلك خطأ تاريخى نتج عن عدم فهم كلمات المؤرخ ديوكيداس من ميجارا .

لقد قوبلت أول مكتبة عامة فى أثينا والتى أسسها بزيستراتوس باستجابة حماسية من جانب الجمهور العام ولكنها لقيت مصيرا محتوما ذلك أنها بعد قرن من الحياة السلمية والازدهار قام الفرس بسلب هذه المكتبة سنة ٤٨٠ق.م. عندما غزا كسركسيس أثينا واستلبها عن أخرها ثم ثنى بحرقها

تماما . وقيل أنه أخذ جميع محتويات المكتبة وعاد بها إلى بلاد فارس ووضعها فى أحد قصوره . وعندما هزم سلوقس الأول (نيكاتور) الفرس فى القرن الثالث قبل الميلاد ، استرد المجموعات وأعادها إلى أثينا وكانت المجموعة عبارة عن لفافات من البردى بطبيعة الحال .

وربما كانت المكتبات الخاصة فى بلاد اليونان فى تلك الحقبة أكثر انتشارا من المكتبات الرسمية ، وهو أمر طبيعى مرت به كل الشعوب حيث تكون المكتبات الشخصية هى أول أنواع المكتبات ظهورًا وأوسعها انتشارا . لقد كانت المعلومات فى البداية يتم تناقلها شفويا بين طبقات الشعوب اليونانية وكما قال أيليان : "إنه من بين شفاة الرواة الجائلين تعلم الناس قصائد البطولة التى نظمها هوميروس وهسيود " وربما بسبب تداعيات ذلك الموقف لعب رواة الملاحم دورًا حيويا غير مباشر فى تطور المكتبات ، ذلك أنه كان عليهم أن يرجعوا إلى نسخ مخطوطة من تلك الملاحم حتى يحفظوها ويروى كل منهم على الملأ المقاطع التى يلقيها عندما يأتى دوره ، ويؤكد على تلك الحقيقة أن أقدم مخطوطة يونانية بعد بردية ديرفينى تم اكتشافها فى سياق يؤكد تلك الفرضية فى مقبرة فى أبو صير بالقرب من ممفيس ، وهى بردية تتضمن قطعة من ملحمة "الفرس" التى وضعها تيموثيوس والتى ترجع إلى النصف الثانى من القرن الرابع قبل الميلاد. وقد وجدت فى تابوت مومياء رجل يعتقد أنه راوية جوّال بسبب حقيبة الظهر التى وجدت معه والعجاز الذى دفن معه، ويرى الثقاة أنه من هذا المنطلق احتاج رواة الملاحم وقصائد البطولة إلى مكتبات شخصية ويرون أنها ظهرت فى نفس الوقت وربما لنفس السبب الذى قامت فيه أول مكتبة عامة فى أثينا وربما قبلها أى من منتصف القرن السادس قبل الميلاد .

ولئن كانت مكتبات الرواة الخاصة قد ظهرت فى ذلك الوقت أو قبله بقليل فماذا عن الباحثين والفلاسفة قبل سقراط ؛ هل كانت لديهم مكتبات

شخصية . كل ما نعرفه فى هذا الصدد أن هيراقليتوس قام فى نهاية القرن السادس قبل الميلاد بإيداع نسخة من كتابه (عن الطبيعة) فى معبد أرتيميس فى إفيسوس على نحو ما قدمت وبعد مائة وخمسين سنة وجدت هذه النسخة طريقها الى مكتبة أرسطو الشخصية . فى نفس الوقت تقريبا قام مهاجران من أيونيا وهما زينوفانيس وفيثاغوراس بتدريس الفلسفة فى المدن اليونانية فى جنوبى إيطاليا المعروفة باسم اليونان العظمى وبدأ بذلك حقبة جديدة من الدراسات المعتمدة والمبنية على نصوص مكتوبة . وعلى الرغم من أن فيثاغورس نفسه لم يكتب شيئا وعلى الرغم من أن مدرسته الفلسفية والعلمية كانت مدرسة تأمل واستبطان إلا أنه أوحى الى الآخرين بأن يكتبوا العديد من الكتب المبنية على الأفكار والمعلومات التى قام بتدريسها ، تلك الكتب التى استنسخت فى العديد من النسخ والتى تم تداولها خارج حدود اليونان العظمى. لقد هاجر فيثاغوراس إلى كروتون فى اليونان العظمى بين ٥٤٠ و ٥٢٢ قبل الميلاد ولسخرية القدر تم نفيه علي يد الرجل الذى أسس أول مكتبة فى ساموس (بوليكراتس) . وكان تابعة الذى سجل ودون أفكاره هو فيلولاوس من كروتون مدرس سيمياس من طيبة الفيلسوفين الشابين اللذين درسا بعد ذلك على يد سقراط ومن ثم كانا حلقة الوصل بين مدرسة وتقاليد فيثاغوراس ومدرسة أثينا . وقد نشرت كتابات عديدية حول ما قام به أفلاطون لشراء أعمال فيثاغوراس التى نشرها فيلولاوس سابق الذكر .

وتؤكد المصادر على أن مدرسة الفلسفة فى أيونيا واليونان العظمى كان لها تأثيرها الكبير على الباحثين والفلاسفة فى أثينا لكى يبدأوا فى الإقبال على الكتب وتكوين المكتبات الشخصية فى العقود الأولى من القرن الخامس قبل الميلاد أى فى الوقت الذى ولد فيه سقراط (٤٧٠ق.م. تقريبا) . ورغم عدم قدرتنا على تناول التفاصيل وتتبع الأحداث فإنه يمكننا القول مطمئنين أنه فى نهاية القرن الخامس قبل الميلاد كانت الكتب تأليفا ونشرا وتناولا ظاهرة

عامة فى أثينا . ومن الأحداث الباكرة التى تؤكد احتفال أهل أثينا بالكتب ما وقع سنة ٤٥٠ق.م حلقة الاستماع التى حضرها سقراط وعديدون غيره إلى كتاب زينو ، (القراءة الإلياتية) بمناسبة زيارة زينو الأولى إلى أثينا بصحبة مدرسة بارمينيدس .

إذا تركنا حقبة ما قبل سقراط إلى الحقبة الكلاسيكية أى حقبة سقراط وما بعده فسوف نجد أن سقراط نفسه لم يخلف لنا أعمالا مكتوبة بل وأكثر من هذا كان له موقف عدائى من الأعمال المدونة المكتوبة وصل إلى حد الاحتقار ونظر إليها على أنها مجرد بدائل للحوارات الشفوية الخلاقة، ورغم موقفه هذا فإنه كان يعترف بدور الكتب المدونة فى تعليم الشباب وبث المعرفة على وجه الإجمال . ولكن النتيجة النهائية ان موقفه هذا لم يمنعه من تكوين مكتبة شخصية وأيضا لم يستنكر على الآخرين تكوينهم لمكتبات شخصية فى محاورته مع عاشق الكتب يوثيديموس نجده يشجع على ذلك :

" قل لى يايوثيديموس . قال هو . هل قمت حقًا بجمع كمية كبيرة من الكتب كتبها رجال اشتهروا بحكمتهم "

"نعم سقراط . قال يوثيديموس . أقسم بـ زيوس. وما زلت مستمرا فى جمعها وسوف استمر فى ذلك حتى أجمع أكبر كمية يمكننى جمعها .

" أقسم بـ هيرا . قال سقراط ، أننى أهنئك من كل قلبى لأنك لم تقم بجمع الكنوز وفضلت عليها الحكمة. ومن الواضح أنك تعتقد أن العملات الفضية والذهبية لا تحسن الرجال بآية حال فى حين أن آراء الحكماء تثرى بالفضائل هؤلاء الذين يتلقونها . وكان يوثيديوس سعيدا لأن يسمع ذلك لأنه اعتقد أن سقراط رأى أنه يسير فى الطريق الصحيح لجمع الحكمة ".

لقد أخذ يوثيديموس تهانى سقراط له على محمل الجد، بينما كان سقراط يدير هذا الحوار مع جماع الكتب البسيط هذا لكى يتهكم على ظاهرة "جنون الكتب" التى انتشرت فى تلك الفترة ، وربما كان هدف سقراط من تلك

المحاورة أن يحد من غرور الشباب الذين اعتقدوا ان امتلاك الكتب يغنى عن المعرفة الحقيقية ويدخل بديلا عنها . وربما كانت تحفظات سقراط حول التكاثر غير العقلانى للكتب آنذاك نابعة من اعتقاده بأن الكتب لا تتيح المحاورات البناءة على نحو ما رآها ، وعلى نحو ما شرحه أفلاطون فى كتابه (السفسطائى) . ولكن من المؤكد أن سقراط لم ينكر فائدة الكتب حتى وإن قام فى محاورة (فايدروس) بالتحذير من الاعتماد المتزايد عليها عندما سجل أن الإله آمون هو مخترع الكتابة :" إن ما اكتشفته هو وصفه لتذكر نفسك وليس للمذاكرة". وعلى الجانب الآخر فإن إقليدس من ميجارا يذكر أنه سمع سقراط يشجع عبدا على أن يقرأ لصديقه بصوت عال مما يكشف عن أن سقراط كان يدرك أن للقراءة فائدة كبرى ، وقد كان من عادة الاغريق القراءة بصوت مرتفع حتى وإن كان الواحد منهم يقرأ لنفسه وهى عادة الطلاب فى استذكار دروسهم .

وكان سقراط عندما يسمع أحد يقرأ فقرات شيقة من كتاب الفيلسوف أناكساجوراس من كلازومينای [الذى قيل أنه أول مدرس للفلسفة الطبيعية فى أثينا لمدة ثلاثين سنة اعتبارا من ٤٦٠ق.م.] فإنه يذهب لشراء كتب أناكساجوراس ولكن بعد ذلك يخيب أمله فى المستوى الفكرى لمؤلف الكتاب. وطبقا لما قال أفلاطون فإن سقراط عزف عن كتاب لأناكساجوراس ساخرا من أن كتبه رخيصه الثمن يباع كل كتاب منها بـ دراخمة واحدة . ويعترف أفلاطون بأن السفسطائيين قد لعبوا دوراً قياديا فى الحياة الفكرية فى أثينا فى السنوات القليلة قبل اندلاع الحرب البيلوبونيزيه (٤٣١ق.م.) وامتدح أناكساجوراس باعتباره آخر الفلاسفة الطبيعيين .

وخلاصة القول فى سقراط أنه لم يخف اعتراضه على الكلمة المكتوبة ولم يخف شكوكه حول قيمة الكتب المدونة ، ومع ذلك فقد سعى إلى تكوين مكتبة شخصية ، بل وأكثر من ذلك فإنه طبقا لما قال به زينوفون كان سقراط

يتصفح كتب الحكماء والفلاسفة الآخرين الذين سبقوه وخاصة النسخ التى كتبوها بخط أيديهم ويتدارس تلك الكتب مع أصدقائه وينقل منها بعض المذكرات .

من موقف سقراط هذا وإن كان شخصيًا يمكننا مطمئنين القول بأن النشر المنتظم للكتب فى أثينا وقع فى حوالى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد ، وفى العقود القليلة التى تلت توسعت حركة النشر إلى حد كبير بفضل نشاط السفسطائيين وتشجيعهم للنشر مما لفت نظر المعارضين لنشر الكتب ، ولم يكن سقراط هو الوحيد المعترض على الكتب المدونة وعلى انتشار ظاهرة جنون جمع الكتب التى حركتها جماعة السفسطائيين أساسًا ، بل سانده فى ذلك عديدون من بينهم أريستوفانيس وأفلاطون وغيرهما كثيرون وأتباعهم فيما بعدهم ومن بينهم أنتيثينز وأونوبيدس الرياضى .

لقد عمل السفسطائيون على تعميم الكتب ونشرها على أوسع نطاق ممكن على نحو ما قام به الإنسيون فى عصر النهضة ؛ ولم تشهد بلاد اليونان قبل السفسطائيين مثل هذا الكم من الكتب المنشورة والمطروحة فى السوق للتداول بين الناس حيث استغل السفسطائيون هذا الوسيط لبسط أفكارهم وتوسيع نطاق تداولوها بين الجموع . لقد جاء السفسطائيون من جميع أنحاء العالم اليونانى وكانوا بطريقة أو بأخرى خلفاء رواة الملاحم وقدموا أنفسهم للناس على أنهم حكماء وفلاسفة يفسرون الملاحم القديمة ويحللونها ويرون الشعر القديم ويعلقون على اللغة ويضعون شروحا لها بنفس النهج الذى سار عليه الفلاسفة الأقدمون، وهم وإن لم يكونوا راغبين فى القيم الإنسانية إلا أن اعتمادهم الأكبر انصب على أساسيات البنية اللغوية والفهم الصحيح للكلمات والمفاهيم التى استخدموها بأنفسهم . ومن هنا جاء تمسكهم بالكتب كأنجع وسيلة لترويج فلسفتهم التربوية وحيث كانت الكتب هى أدوات التدريس والتعليم عندهم .

وفى حقيقة الأمر فإن السفسطائيين كانوا السبب فى التحول الايجابى النافع نحو الطريقة التى كتبت بها الأعمال الفكرية والوثائق الرسمية ، ذلك أنهم هم الذين أدخلوا الأبجدية الأيونية بدلا من الكتابة الأثينية القديمة فى زمن إقليدس (٤٠٣ أو ٤٠٢ق.م) . كما أنهم بذلوا جهد الطاقة فى رفع مستوى الوعى بالأهمية الحيوية للكتب فى نشر المعرفة الإنسانية . وباعتبارهم مدرسين مهنيين فقد كان عليهم أن يمدوا تلاميذهم بالكتب الدراسية ، وقد كانت أساسًا أعمال الشعراء العظام ولكنهم فى نفس الوقت أرادوا ترويج كتاباتهم عن طريق تقديمها كنماذج تحتذى ويقاس عليها فى محاولة منهم لجعل طلابهم موسوعين متعددى الثقافات . ومن هنا يمكننا القول بأن العقود الأخيرة من القرن الخامس قبل الميلاد شهدت تحولاً عامًا من الثقافة الشفوية إلى الثقافة المكتوبة . ولأول مرة فى تاريخ اليونان يبدأ الباحثون اليونانيون فى كتابة كتب المجاميع التى يجمعون فيها الحقائق من كل نوع وفى كل فروع المعرفة البشرية والتى من أقدمها كتاب هيلانيكوس من ليسبوس (التاريخ الأثينى) الذى اعتبر بطريقة أو بأخرى سلف أعمال أرسطو الموسوعية وأعمال ثيوفراستوس الموسوعية وغيرهما ممن دار فى دائرتهم .

من الفلاسفة السفسطائيين نصادف بروتاجورس الذى كان قائد السفسطائيين المهنيين فى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد .ويعرف بأنه بروتاجوراس من أبديرا (٤٩٠ – ٤٢٠ق.م) وكان كاتبًا خصبًا كثير الإنتاج وإن اعتبره البعض ذا فكر مخرب ، وقد جاء إلى أثينا ومارس مهنته لمدة أربعين عاما بنجاح شديد كون خلالها صداقات حميمة وأيضا عداوات شديدة. وربما من خلال تأثير بروتاجوراس بدأ صديقة بيركليس قراءة خطبه فى الساحات العامة من نص مكتوب ومعد سلفا بدلاً من الارتجال الذى كان حتى ذلك الحين هو الأمر الشائع فى الخطب والأحاديث العامة .

ولعل أهم إضافة قدمها بروتاجوراس للفلسفة هو اعتقاده الراسخ بأن الإنسان هو معيار ومقياس كل شئ ، ولكن كان أكثر كتبه إثارة للجدل وأكثرها سفسطة وأخطرها على الفكر الإنساني آنذاك هو كتابه "عن الآلهة" . ويقال أنه قرأ كتابه هذا لأول مرة فى بيت إما يوريبيدس أو ميجاكليدس . ولكن طبقا لشهادة أحد تلاميذه (أركاجوراس) ابن ثيودوتوس فإنه قرأه عليه فى الليكيوم (قاعة المحاضرات العامة) . وأيا كانت القراءة فقد خلقت القراءات العامة ضده رأيا عاما غاضبا واضطرته إلى الاعتذار العلنى العام أيضًا. وهو فى بداية هذا الكتاب يقرر أنه لا يستطيع أن يكون رأيا حاسما حول الآلهة ولا يستطيع الجزم بما إذا كانت الآلهة موجودة أم لا . وطبقًا لما ذكره ديوجينيس لا يرتوس فقد حكم عليه أهل أثينا بالنفى وأرسلوا مندوبين يطوفون حول المدينة ويجمعون كل نسخ كتبه حيث وجدت وأحرقوها فى الساحة العامة فى مدينة أثينا (أجورا). وإن صحت تلك الرواية فهذه هى أول عملية رقابة مسجلة فى تاريخ اليونان القديم وربما فى تاريخ العالم .

ممن وقوفوا ضد السفسطائيين بشدة لابد من الوقوف أمام أرستوفانيس الذى انتقدهم نقدًا مرا وانتقد استغلالهم للكتب فى توصيل أفكارهم . لقد كان الرجل منزعجا أشد الانزعاج من الفيض المغرق فى نسخ الكتب والعدد الكبير من النساخين الذين اجتاحوا أثينا ، وإن لم يمنعه ذلك مثل سقراط – من القول بأن التراجيديات يجب أن تدون وتكتب لأغراض التمثيل على المسرح والقراءة الخاصة والمناقشة .

لقد عرفت متاجر الكتب فى أثينا الكلاسيكية (القرن الخامس قبل الميلاد وما بعده) بإنها مسكونه برجال الفكر . ففى كتاب (الطيور) الذى صدر سنة ٤١٤ق.م. صور أهل أثينا على أنهم قراء نهمون للكتب يندفعون بعد تناول طعام الفطور مباشرة إلى متاجر الكتب يتصفحون ما بها من كتب ، ويلتقطون أحد الكتب ويتحدثون إلى أصدقائهم عن مزايا وعيوب الكتب التى

قرأوها . وكان هناك فى ذلك الوقت مصطلحات مستخدمين لوصف تاجر الكتب أولهما : محب الكتب النادرة (وبعد ذلك تاجرها) . وقد استخدم هذا المصطلح لأول مرة أريستومينيس فى كتاب (الساحر) وبعد استخدمه ثيوبومبوس فى كتابه (السلام) وثانيهما : دلال الكتب وصياد الكتب والذى استخدمه لأول مرة جوليوس بولوكس وشاع بعده . وكانت متاجر الكتب توجد بكثرة وأساسا فى الساحة الرئيسية فى أثينا على أقل تقدير ابتداء من ٤٢٥ق.م. وطبقًا لما ذكره كاتب المسرحيات الكوميدية يوبوليس الذى أشار الى مكان بيع الكتب وطبقا لما ذكره زينوفون فى كتاب (الدفاع) سنة ٣٩٩ ق.م فإن كل متاجر الكتب كانت مركزه فى المنطقة المعروفة باسم (أوركسترا) وهى نصف أو شبه دائرة فى المستوى الأرضى من مركز الساحة العامة (أجورا) فى أسفل جبل أكروبوليس وتطل عليها تماثيل قتلة المستبدين الطغاة : هارموندیوس وآريستوجيتون مما يبدو معه رمزا على أن الكتب لها دور فى تحقيق الديمقراطية .

وثمة قصة تدور أحداثها حول ألكبياديس وعطشه للكتب ، وكانت هذه القصة متداولة فى زمن أريستوفانيس وظلت فى سجل القصص الأدبية عدة قرون بعد ذلك التاريخ وحيث نجدها تطفواعلى السطح فى كتاب آيليان (مجموعات تاريخية) فى القرن الثانى الميلادى . وقد وجد آيليان فى القصة فى أحد أعمال معاصره جوليوس بولوكس الذى اقتبسها ليكشف عن العلاقة الحميمة بين محبى الكتب وباعة الكتب فى اليونان القديم : تقول القصة بأن ألكبياديس ذلك الصبى الفاسق الفاسد ذهب إلى أحد متاجر الكتب لشراء نسخة من ملحمة هوميروس ولكن صاحب المتجر أخبره بأن النسخ نفدت ولسوء حظ التاجر أنه تلقى لكمة قوية فى وجهه من ذلك الزبون الفاجر: وقد دخلت على القصة بعض التحويرات من خلال تداولها ولكن المضمون والهدف بقى واحدا فاللكمة على الوجه وجهت لأحد المدرسين المعروفين الذى قيل أن

تلاميذه كانوا يتكسبون من نسخ الكتب وكان الزبون غاضبا لأنه أمر بنسخ كتاب له ولكن الناسخ لم ينته منه فى الوقت المحدد. ويقال أن أريستوفانيس تشاجر مع ألكبياديس سنة ٤١٠ق.م. أو نحو تلك السنة . وربما يكون هو نفسه قد روج تلك القصة لتشويه صورة خصمه .

وكان أريستوفانيس يميز تمييزا قاطعا بين كتاب السفسطائيين ونصوص المسرحيات المكتوبة ، وكان الرجل يعتقد بأن أهل أثينا لا يمكن أن يتردوا فى مخاطر الجهالة لأن رواد المسرح كانوا من العسكريين والمثقفين الذين يقرأون الكتب لفهم القضايا الأساسية ولعل من النوافل التذكير بان معظم مشاهدى المسرحيات آنذاك كانوا يرتادون المسارح ومع كل منهم نسخة مكتوبة من المسرحية التى يشاهدونها. كذلك لابد من التذكير بأن بعض المسرحيات لم تكن لتمثل على المسرح ومن ثم فإن نسخها كانت تباع فى سوق الكتب لأغراض القراءة وليس المشاهدة .

وبينما كانت العروض المسرحية مظهرًا هاما من مظاهر الحياة الاجتماعية والسياسية فى أثينا فإن النسخ المكتوبة من المسرحيات كانت مطلوبة لأغراض النقد الأدبى والفلسفى . ونجد انتقادات كثيرة للمسرحيات ما كانت ممكنة بدون وجود نص مكتوب يستند إليه الناقد . وعلى أية حال فهناك من الأدلة النقلية والعقلية ما يؤكد على وجود مكتبات شخصية لدى كتاب الدراما . وقد أشار أريستوفانيس إلى ذلك عرضا عندما تهكم على يوريبيدس لحبه الشديد للكتب ولمكتبته الجميلة واستخدامه لناسخ ناشر خاص به ..

ويعتقد أريستوفانيس أن أثينا قد أصيبت بالاضطراب من جراء تعاليم السفسطائين التى نشروها فى نسخ كثيرة ، ولم يفرق أريستوفانيس بين الكتب والمؤلفين فكلاهما وبال على أهل أثينا . وقد حمل الرجل حملة ضارية على بروديكوس وكتبه على وجه الخصوص وربما كان ذلك بسبب غزارة إنتاجه

الموجود فى السوق آنذاك .

ولكن من عساه أن يكون بروديكوس هذا؟ بروديكوس من كيوس أهم أتباع بروتاجوراس سابق الذكر وقد أعجب به معاصره سقراط أيما إعجاب وحيث اعتبره حجة فى معرفة الفروق بين الكلمات ذات الصلة . ويرى بعض النقاد أن بروديكوس كان يبالغ كثيرًا فى رسم الحدود بين الكلمات ذات المعانى المتشابهة . ولكن الذى جعله موضع هزؤ وسخرية دائرة سقراط المبالغ المالية الكبيرة التى كان يتقاضاها فى مقابل الدرس الواحد؛ ويسمونه "محاضرة الخمسين دراخمة على نحو ما ذكره أفلاطون . وفى محاورة أفلاطون المعنونة (بروتاحوراس) جرى تصوير بروديكوس وهو يلقى الدرس متدثرًا بفرو الغنم وأغطية أخرى تلقى عليه .

لقد جاءت علينا الحقبة الكلاسيكية – فترة سقراط وما تلاها – بعدد وافر من المكتبات الشخصية . وسوف نقتطع من العدد الكبير الذى وصلنا خبر بعض المكتبات الأساسية الخاصة لنسلط عليه الضوء وحيث لم تعرف بلاد اليونان فى الحقبة الكلاسيكية إلا هذا النوع من المكتبات . وإلى جانب الحديث عن المكتبة الشخصية لا نستطيع أن نمنع أنفسنا من الحديث عن صاحب المكتبة والظروف التى جمع فيها كتبه وبقدر الإمكان الظروف التى اختفت فيها المكتبة .

ولعل أول مكتبة شخصية تطالعنا هنا فى السياق التاريخى هى **مكتبة أفلاطون** ذلك أنه على الرغم من أن أفلاطون كان أعنف نقاد السفسطائيين ولم يترك أية فرصة إلا وهاجمهم فيها وسخر منهم ومن أفكارهم واتجاهاتهم نحو الكتب إلا أنه لم يشكك لحظة فى أهمية الكتب كأدوات مساعدة على التفكير وتكوين المعرفة لدى الشخص وأيضًا كأدوات أساسية فى تعليم الشباب . وربما يوصف أفلاطون بأنه أول جامع للكتب فى العالم اليونانى . وليس لدينا شك فى أنه كانت لدى أفلاطون مكتبة شخصية استخدمها فى

التدريس وفى إدارة الأكاديمية . ويرجح الثقاة أن المكتبة لم تتضمن فقط كتب معاصريه ولكن أيضا كتابات فلاسفة ما قبل سقراط . ويؤكد الثقاة فى هذا الصدد أيضا أن جانبا كبيرا من المعلومات المستقاة عن أفلاطون ومكتبته من المصادر المتأخرة وخاصة مجموعة أوراق البردى التى ضمتها المكتبة والمتعلقة بنظريات فيثاغوراس لا ينبغى أن يعول عليها كثيرا لأنها جاءت من مضع أناس كان همهم الأول تشويه صورة أفلاطون .

ومن المعلوم أن أفلاطون قد عرف بنظريات فيثاغوراس عند زيارته الأولى إلى اليونان العظمى فى الوقت الذى جرى فيه إحياء الفيثاغوراسية على يد أرشيتاس من تارنتوم . وقد لونت نظريات فيثاغوراس آراء أفلاطون فى مجال الميتافيزيقا . لقد ذهب أفلاطون إلى صقلية عندما كان ديونسيوس الأول (٤٠٥ – ٣٦٧ق.م) يحكم سراقوسة (سيراكيوز) وكان آنذاك فى أوج قوته . وكانت علاقة أفلاطون مع ديونسيوس الأول مشحونة بالتوتر وقد تدرجت من سئ إلى أسوأ . وربما كانت الحسنة الوحيدة التى جناها أفلاطون خلال إقامته فى سراقوسة هى المكافأة السخية التى كان يحصل عليها طالما كان على وفاق مع ديونسيوس .

والحقيقة أن مصدرنا الأساسى عن مكتبة أفلاطون هو "ديوجينيس لايرتوس" الذى ينقل عن آخرين أن أفلاطون كتب إلى ديوان (زوج أخت ديونسيوس الأول) يطلب منه أن يشترى له من فيلولاوس ثلاثة كتب من تأليف فيثاغوراس ثمنها مائة منياى (عشرة آلاف دراخمة) . وذكر أن بإمكانه دفع هذا المبلغ لأن ديونسيوس الأول منحه ثمانين تالنت (٤٨٠,٠٠٠ دراخمة) . وفى رواية أخرى أن أفلاطون اشترى تلك الكتب بنفسه عندما كان فى صقلية ودفع فيها أربعين منياى لأهل فيلولاوس صاحب الكتب . وفى رواية ثالثة أن أفلاطون تلقى هذه الكتب هدية أو مكافأة له على توسطه لدى ديونسيوس الأول للإفراج عن أحد تلاميذ فيلولاوس كان مسجوناً لديه .

وفى سراقوسة أيضا تعرف أفلاطون على أعمال سوفرون وهو كاتب مسرحيات ساخرة نشط فى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد وحقق شهره واسعة ، ويبدو جليا أنه اشترى نسخا من أعمال سوفرون وعاد بها إلى أثينا وأثارت شهية العديدين هناك فى أثينا : أرسطو الذى ناقشها فى كتابه (الشعر) وقدرها حق قدرها ووضعها فى مصاف أعمال سقراط . ويبدو أن أفلاطون قد نسج شخصيات فى محاوراته على غرار شخصيات سوفرون فى مسرحياته الساخرة . وقيل أيضا أن أفلاطون كان يضع نسخة من مسرحيات سوفرون تحت الوسادة ؛ ويرى البعض أن هذين الأمرين مبالغ فيهما . وتذكر مصادر أخرى أن أفلاطون كلف هيراكليديس بونتيكوس بشراء نسخ من قصائد أنتيماخوس من كولوفون له .

ولقد سجل أفلاطون اتجاهه نحو الكتب ونحو تعليم الشباب فى كتابه (القوانين) وحيث قال أن الطفل يجب أن يبدأ أولا بتعلم الأدب ثم بعد ذلك الموسيقى " يجب على طفل العاشرة أن يتعلم الأدب ولمدة ثلاث سنوات . وفى سن الثالثة عشرة يأخذ فى تعلم الموسيقى لثلاث سنوات أخرى . وقد شدد على ذلك الأمر كذلك فى كتابه بروتاجوراس . ونتيجة كتابات أفلاطون حول تعليم الشباب أن أصبح أطفال المدارس يسيطرون على مهارة الكتابة والخطاطة كما طوروا وعيا حقيقيا وعميقا بأهمية الكتب فى التعلم واكتساب المعرفة .

ورغم إيمان أفلاطون بأهمية الكتب فى التعليم إلا أنه سار على خطى فيثاغورس وسقراط فى عدم استخدام نص مكتوب فى التدريس. ففى محاورة فايدروس نجده يقلل من أهمية الكلمة المكتوبة ؛ وفى رسالته السابعة يؤكد على أنه لم يستخدم فى محاضراته أى نص مكتوب على الإطلاق فقد كانت محاضراته كما قال أرسطو " عقائد غير مكتوبة". ومن هنا قام تلاميذه بتسجيل أعماله للانتفاع بها ولم تكن لديه أية تحفظات على ذلك . وكان أحد

تلاميذه الرياضى هيرمودوروس قد أمضى وقتا كبيرا فى كتابة نسخ عديدة من محاورات أفلاطون للنشر . ولقد لقيت كتب أفلاطون رواجا كبيرا حتى خارج حدود العالم اليونانى على نحو ما نصادفه فى صقلية على سبيل المثال رغم أن كتب أفلاطون كان محظورة هناك .

ومن نوافل القول أن اليونان القديم لم يعرف حق المؤلف وكانت قرصنة الكتب على أشدها مما تسبب فى اضطرابات عديدة فى نصوص الكتب التى وصلت إلينا الآن . وربما لهذا السبب أن يقوم تلميذ آخر من تلاميذ أفلاطون هو فيليب من أوبوس بنشر نسخ صحيحة من أعمال أفلاطون على نحو ما فعل هيرمودوروس . لقد قام فيليب بنشر طبعه منقحة سليمة من كتاب (القوانين) وربما من محاورات أخرى كذلك . وقد اعتمد فى ذلك على مسودات أخذها على ألواح خشبية مشموعة من محاضرات أفلاطون وقد قام فيليب بتقسيم هذا العمل إلى اثنى عشر سطرًا وأضاف عليه عملا واحدا من عنده يعتبر بمثابة الملحق للقوانين . ونظرًا لمعرفتنا اليقينة باعتراض أفلاطون على نشر أعماله فى كتب فإننا من الطبيعى أن نستنتج قيام تلاميذه على غرار ما قام به هيرمودوروس وفيليب – بنشر سائر أعماله بمن فى ذلك أرسطو ، سبيوسيبوس ، هيراكليديس بونتيكوس ، زينوقراطيس وبالتالى خلدت أعمال أفلاطون ووصلت إلينا .

من المكتبات الشخصية فى الحقبة الكلاسيكية اليونانية **مكتبة إيزوقراطيس** . ومن المعروف أن إيزوقراطيس ولد سنة ٤٣٦ق.م. عندما كانت أثينا فى أوج قوتها . وكان هذا الرجل من أنجب تلاميذ جورجياس السفسطائى ، وكان على درجة عالية من العلم . وقد استخدم الرجل كل إمكانياته لزيادة إنتاج الكتاب عن طريق استخدامها فى التدريس فى مدرسته للبلاغة ونظام التعليم الذى أدخله . وعلى الرغم من أنه لم يكن على وفاق مع الفلاسفة واتخذ فى مدرسته خطًا معاديًا للفلسفة فقد اكتسب شهرة واسعة

بسبب حبه للغة ومهاراته العالية فى استخدام المفردات اللغوية .

ولقد ولد الرجل فى ظروف مواتية وأسرة ثرية ، إلا أنه فقد ثروته واضطر إلى كسب عيشه من كتابة خطب الخطباء التى يلقونها فى الساحات العامة أمام الناس . ومن جهة ثانية أدرك إيزوقراطيس أن صوته ضعيف ومن الصعب عليه أن ينجح كخطيب وكان عليه أن يبحث عن وسيلة أخرى لتحقيق طموحاته ومن هنا رأى أن الكتب هى الوسيط الذى يمكن أن ينجح فيه وناضل أكثر من أى شخص آخر لحمل الناس على الاعتراف بأهمية الكتب ودافع عن قضية الكتاب بكل الطرق الممكنة . وفى سنة ٣٩٠ ق.م. وهو فى عمر السادسة والأربعين افتتح مدرسة قدر أن يكون لها تأثير ضخم فى هذا الصدد ، وكانت الخطب التى يكتبها كى تدرس فى دروس البلاغة تعتبر نماذج من النثر الراقى تنطوى على مبادئه فى البلاغة : أن تنسج بطريقة تعرض قوة الكلمات وهو ما سعى إلى غرسه فى تلاميذ مدرسته . وكان إيزوقراطيس يعترف دائمًا بفضل الكتب عليه . وكان على عكس أسلافه بروتاجوراس وبروديكوس يعتمد على استخدام الكتب فى كتابه خطبه وتحقيق مهارته البلاغية ؛ وقد ألمح أرسطو إلى تلك الحقيقية وإن كانت هناك رنة سخرية فى كلام أرسطو لما بين مدرستيهما من منافسة .

ويتضح تقديره العالى للكتب واعتقاده فى قيمتها من مطارحته (ضد السفسطائيين) والتى يشرح فيها وجهات نظره فى الفلاسفة وتطويره لفن الخطابة وأساسيات البلاغة . وقد جاء فى مقدمة هذه المطارحة بوضوح شديد أنه قام بكتابة ونشر هذه المطارحة لتوزيعها بين هؤلاء الذين يرغبون فى اقتنائها .

وقد ثبت لنا بالأدلة النقلية والعقلية أنه كانت للرجل مكتبة شخصية يعتمد عليها فى استقاء مادته العلمية فى خطبه وفى تدريسه فى مدرسته كما وضع فيها أعماله الكثيرة التى توفر على تأليفها . وكان يتيح مكتبته لزملائه

وتلاميذه فى المدرسة .

ومن الخطباء الإغريق المرموقين فى الفترة الكلاسيكية والذين كانت لهم مكتبة شخصية متميزة : **ديموثينز** المولود سنة ٣٨٤ق.م. وهو مثل إيزوقراطيس تحدر من أسرة غنية ولكنه بعد أن شب اصطدام بخشونة الحياة ومشاكلها وقد عود نفسه على التغلب على المشكلات العقلية بنفس الطريقة التى عودها على التغلب على المشكلات الفيزيقية. وطبقا لما ذكره شيشرون قام ديموثينز بدراسة أعمال أفلاطون دون الاستعانة بأية مدرسين ودون الالتحاق بمدرسة أفلاطون . وكان **ديموثينز** شديد التأثر بفلسفة واتجاهات ثيوكديديس الذى غرس فيه عاطفة التدريس لمجد وعظمة أثينا ، وربما كان هذا هو السبب فى أنه توفر على نسخ كتاب (التاريخ) الذى وضعه ثيوكديديس بكامله وبعدة نسخ سواء لنفسه أو لأصدقائه . وقد ركز كل من شيشرون ولوسيان أن **ديموثينز** نسخ كل الكتب التى كانت فى حوزة هذا الأخير كما أعد ثمانى نسخ من تاريخ ثيوكديديس . ولم تصل معلومات يقينية عن مهارته كخطاط أو أنه تكسب من نسخ الكتب ، ولكننا نعرف يقينا أنه كان يلقى دروسًا فى البلاغة والخطابة كما كان يكتب الخطب للآخرين مقابل أجر. وفى الوقت الذى اعتلى فيه الاسكندر الأكبر عرش مقدونيا سنة ٣٣٦ ق.م. كان **ديموثينز** قد توقف عن إلقاء خطبه وإن استمر فى كتابة الخطب للآخرين . وقد استمر فى تأليف كتب البلاغة والكتب الفلسفية وكتب التاريخ والمسرحيات التراجيدية والكوميدية والتى كانت متاحة لدى البلاغة فى الساحة الرئيسية .

وكانت لدى الرجل مكتبة شخصية عظيمة ضمت كثيرا من الكتابات السابقة عليه والمعاصرة له ونسخا من أعماله هو . ومن المؤكد أنه أفاد منها فى تأليفه وفى التدريس فى المدرسة التى أقامها والتى ناقشت مدرسة أرسطو .

من المكتبات الشخصية الجيدة التى وجدت فى الحقبة الكلاسيكية اليونانية **مكتبة زينون** ، الذى ولد فى ستيوم فى قبرص سنة ٣٣٤ أو ٣٣٣ ق.م. وكان أبوه مناسيوس تاجرًا يتردد على أثينا فى أعماله واعتاد على إحضار نسخ من أعمال تلاميذ سقراط لابنه زينو وعندما كبر زينو حل محل أبيه فى تجارته ولكنه فى أولى رحلاته مع شحنة من الملابس اشتراها من فينيقيا تحطمت السفينة التى كان عليها على شواطئ أثينا وكانت خسارة كبيرة له . ولذلك نزل الرجل إلى أثينا وعمل فى متجر كتب ، ومن ثم أتيحت له الفرصة لكى يستمع إلى صاحب المتجر يقرأ كتب زينوفون بصوت عال وقد أعجب إيما إعجاب بما قاله زينوفون عن سقراط وتساءل عما إذا كان هناك ما يزال رجال فى مثل سقراط . وفى نفس اللحظة كان الفيلسوف كريتس يمر بالمتجر وما كان من بائع الكتب إلا أن قدمه إلى زينو الذى أصبح تلميذًا له .

وبعد أن تفتحت عينا زينون على أهمية الفكر الفلسفى فى الحياة الإنسانية توقف الرجل عن السعى وراء المال وأخذ فى السعى وراء المعرفة وأسس المدرسة الرواقية (نسبة إلى الرواق الذى كان يدرس فيه فى أثينا) والتى كان لها تأثير كبير على الأجيال اللاحقة من الفلاسفة واجتذبت الطلاب بأعداد كبيرة من أنحاء متفرقة من العالم . ومن الثابت أن عملية التدريس فى تلك المدرسة قامت أساسا على النصوص المكتوبة وظل هذا التقليد معمولا لدى خلفاء زينو فى المدرسة .

وتذكر المصادر الثقاة أن زينون كانت لديه مكتبة شخصية ذات مجموعات كبيرة ، وقد نمت تلك المجموعات كما أسلفت عن طريق الشراء وكذلك عن طريق النسخ حيث أرسل إليه ملك مقدونيا المدعو أنتيجونوس جونيتس وهو تلميذ سابق له ، عددًا من النساخ يقومون بنسخ الكتب له . كذلك اشترى زينو عددًا من الصبية النساخين بعد الحرب البيلوبونيزية لنسخ

الكتب له وحيث كان عدد الكتب الموجودة فى السوق كبيرا مما استأهل حشد هذا العدد من النساخين لنسخ أكبر كمية من الكتب لمكتبته .

ومن هذه النماذج والنموذج الذى سنفرد له حديثا خاصا – **مكتبة أرسطو**– يمكننا القول مطمئنين أنه مع منتصف القرن الخامس قبل الميلاد كان هناك عدد كبير من المكتبات الشخصية فى بلاد اليونان لدرجة دفعت أحد الكتاب إلى المبالغة والقول بأنه "كانت هناك مكتبات شخصية بقدر عدد المواطنين فى أثينا " ولدرجة دفعت بوليبيوس إلى القول بأنه فى القرن الثالث قبل الميلاد كان هناك عدد كبير من المكتبات الخاصة والعامة (وهذه الأخيرة يقصد بها المدرسية) . ويضرب بوليبيوس مثلا بمكتبة المؤرخ الصقلى تيمايوس الذى ظل خمسين عاما يعد فى فهارسها بعد أن نفاه حاكم سراقوسة أجاثوكليس ؛ وإن كان فى ذلك مبالغة أو تهكم فإن مبعث ذلك هو ضخامة حجم مجموعات تلك المكتبة . ولقد كان من نتائج الإقبال الشديد على مسرحيات كتاب التراجيديا الثلاثة العظام وجود نسخ كثيرة مشوشة نتيجة السرعة وعدم التدقيق فى النسخ : مما حدا بوزير مالية الدولة ليكورجوس سنة ٣٣٠ق.م. أن يصدر مرسومًا خاصا بضرورة إيداع نسخ سليمة رسمية مرموقة وموثقة من مسرحيات هؤلاء الكتاب فى أرشيف الدولة فى أثينا .

وفى السياق التاريخى لابد وأن نتوقف طويلا ومليا أمام أرسطو ومكتبة أرسطو ، عاش أرسطو بين ٣٨٤ و ٣٢٢ق.م. وهو واحد من أعظم فلاسفة العالم فى جميع العصور ، وقد ولد أرسطو فى ظروف سياسية قاسية حيث كانت أثينا قد دخلت فى أزمة اجتماعية سياسية بعد الهزيمة القاسية الساحقة التى منيت بها أثينا على يد الإسبرطيين سنة ٤٠٤ ق.م. ورغم تلك الظروف فقد قامت هناك مدرستان فلسفيتان مارست تأثيرا كبيرا على الفكر الانسانى فى تلك الفترة ففى سنة ٣٨٨ق.م. أسس أفلاطون مدرسته فى غار مكرس لربات الفنون وللبطل أكاديموس أو هيكاديموس والذى سميت باسمه أكاديمية

أفلاطون وكانت الأكاديمية قد بدأت كرابطة دينية وكمدرسة فلسفية استمرت لأكثر من تسعمائة سنة . ومن بين أشهر خريجى هذه المدرسة ": أرسطو الذى درس فى تلك الأكاديمية من ٣٦٨ق.م. حتى وفاة أفلاطون سنة ٣٤٨ق.م. وقد قام أرسطو نفسه بتأسيس مدرسة خاصة به سنة ٣٣٥ ق.م. لإعطاء مدرسة أفلاطون فرصة التنافس الصحى . وكانت مدرسة أرسطو التى استمرت حتى ٤٢٥ م يطلق عليها فى بداية الأمر اسم الليكيوم ولكن فى عهد خليفة أرسطو المدعو ثيوفراستوس أعيدت تسمية المدرسة إلى "مدرسة المشائين" . وكانت هذه المدرسة فى أوج عظمتها تحت إدارة ثيوفراستوس وحتى منتصف القرن الرابع الميلادى قد حققت معدل التحاق ٢٠٠٠ طالب . هاتان المدرستان كانتا فيما بينهما مسئولتين ليس فقط عن حفظ كثير من أعمال ومحاضرات المؤسسين والمدرسين فيهما إلى جانب الإنتاج الفكرى السابق عليهما ولكنهما أيضا وبكل يقين نشرا وعيا عميقًا بأهمية الكتب والمكتبات الشخصية على الأقل لأغراض البحث العلمى . ولقد مارس مدرسو المدرستين وطلابهما كذلك عملية جمع الكتب ، وتأليف ونشر الكتب على نطاق لم يحدث له نظير فى العالم اليونانى أو أية مدرسة فلسفية أو حركة علمية فى الشرق أو الغرب من قبل.

ومنذ منتصف القرن الرابع قبل الميلاد كان بطل قضية الكتاب هو بلا منازع فيلسوف الفلاسفة أرسطو . ومن المؤكد أنه لم يكن حجم العلم وكم المعلومات الذى ألقى وولِّد فى الليكيوم على يد المشائين والذى طوره طلاب هذه المدرسة بفضل طريقة التدريس التى اتبعها أرسطو ومعاونوه ، هذا الحجم وهذا الكم لم يكن ممكنا أن يتراكم ولم يكن ممكنا أن يعيش وأن يزدهر إلا بمساعدة من الكتاب . إنها الكتب – ولسخرية القدر – التى حفظت فكر أفلاطون وأرسطو ، فكر أفلاطون الذى كانت له تحفظات شديدة على الكتب.

لقد وصلتنا عن مكتبة أرسطو معلومات وإن كانت متناثرة مبعثرة

نستطيع من خلالها تكوين قطعة فسيفساء واضحة عن تلك المكتبة . وطبقا لما ذكره المؤرخ سترابون ربما كانت مكتبة أرسطو هى أول أكبر وأعظم مكتبة خاصة فى العالم اليونانى القديم والتى آل الجانب الأكبر من مقتنياتها إلى خلفائها فى مدرسة المشائين لمساندة البنية العامة للتدريس فى تلك المؤسسة التعليمية ، والرسالة التى أراد سترابون توصيلها إلينا هى الاستمرارية التى كانت عليها مكتبة أرسطو الشخصية . ولقد احتوت تلك المكتبة على بذور تفكير أرسطو التربوى والعلمى وحيث انطوت على لآلئ الحكمة فى كل فرع من فروع المعرفة البشرية وعلى كل مستوى من مستويات المعالجة والبحث وقد قاومت تلك المكتبة الأحداث الجسام التى مرت بها وحيث كانت هذه المكتبة موجودة فى زمن سترابو (القرن الأول قبل الميلاد) ؛ وبحيث استطاع شيشرون (ماركوس توليوس ١٠٦-٤٣ ق.م) أن يقارن ذخائرها بنسخ مأخوذة عنها فى بيوت عليه القوم فى روما . ومن نوافل القول أن أرسطو لم يكن يبارى فى شمولية علمه ومعرفته . وعلى عكس السفسطائيين فإنه كان قادراً على تصنيف وتحليل كميات كبيرة من المعلومات طبقا لأسسه ومبادئه الفلسفية الخاصة وتعاونه المستمر والمنظم مع تلاميذه . وربما كان أرسطو هو أول فيلسوف يعد طبعات قياسية – إن جاز لنا هذا التعبير – من أعماله . وكان من الطبيعى لهذا أن تكون لديه مكتبة خاصة عظيمة للقيام بالبحث العلمى ونشر نتائج هذا البحث .

وتذكر المصادر أنه قد وصلتنا قائمة ببليوجرافية – وإن كانت فجة – بأعمال أرسطو والتى كانت بطبيعة الحال جزءًا هاما من مقتنيات مكتبة ؛ هذه القائمة استقاها ديوجينيس من فهرس قام بإعداده . وقد قسمت تلك الأعمال إلى قسمين "عام" أى شعبى و "خاص" أى للمتخصصين على نحو ما سنتناوله بشئ من التفصيل فيما بعد . ووقعت أعمال أرسطو هذه فى ٤٠٠ كتاب مجموع سطورها يصل إلى ٤٤٥,٢٧٠ سطرًا ؛ ومن بين هذه

الكتب ١٠٦ كتب تضم (المجموع الأرسطى) أى نصوص المحاضرات التى ألقاها فى مدرسته . وتذكر المصادر أن كتب أرسطو وحدها فى مكتبته تمثل كنزًا ثمينا حتى لو استبعدنا مؤلفات الآخرين والتى زخرت بها المكتبة وحيث وصفه سترابون بأنه أعظم جماع للكتب فى العصور القديمة . ومن الشائع أن الأسكندر الأكبر تلميذ أرسطو البار قد خصص لأستاذه السابق سناهيه أى دخلاً سنويا مقدارها ثمانمائة تالنت . وكان أرسطو قد أعد لتلميذه الاسكندر طبعة معتمدة موثقة من الإلياذة . وبدوره قام الاسكندر الأكبر من خلال غزواته فى الشرق الأوسط بإرسال مواد علمية قيمة وعلى قدر كبير من الأهمية إلى أستاذه السابق ليضعها فى كتابه المجموع الكبير الذى خصصه لدساتير الدول وقد بلغت الدساتير التى بعث بها الاسكندر إليه دساتير ١٥٨ مدينة ، وتذكر المصادر الجزء الأكبر من كتابه (دستور – أثينا) والذى لا نعلم عنه إلا أقل القليل قد تم اكتشافه سنة ١٨٩١م . وإلى جانب الكتب الكثيرة التى بعث بها الاسكندر الأكبر إلى أرسطو ، كان لدى أرسطو مال وفير استطاع من خلاله شراء كميات كبيرة من الكتب . وتذكر الوثائق أنه أنفق ثلاثة تالنتات لشراء أعمال سيبوسيبوس خليفة أفلاطون كرئيس للأكاديمية ، وقد اشتملت تلك الأعمال على ٤٣,٤٧٥ سطرًا.

ومن خلال المعلومات التى وصلتنا عن مكتبة أرسطو يمكننا تقسيم مجموعات هذه المكتبة إلى ثلاث فئات :

أ) **الأعمال العامة (المطارحات العامة)** كما سماها أرسطو نفسه ، وهى كتاباته التى وجهها أساسا للجمهور العام أو للشعب خارج نطاق المدرسة والتدريس الأكاديمى . والتى كان من الضرورى إعدادها وتحريرها ونشرها بطريقة تناسب وتروق للقارئ العام غير المتخصص . وكان من أهم الكتب فى هذه الفئة كتابه : " مدخل إلى الفلسفة" ، وكتابه " محاور يوديموس " وكتابه "الاسكندر أو من أجل المستعمرين" وكذلك سلسلة رسائله

الصغيرة والتى من بينها " الرد على فيثاغورس " ، "إلى زينون" ، "إلى جورجياس" ، كما ضمت هذه الفئة أول كتابين من "البلاغة" .

ب) الأعمال الخاصة : وهى موجهة أساسا للمتخصصين وحيث كانت هى الأعمال التى تدرس وتوجه للطلاب فى الليكيوم أو المتخصصين من خارج المدرسة أو هؤلاء الذين كانوا يحضرون المحاضرات المسائية . وتضم هذه الفئة أعمالا مثل " التحليل السابق" و "التحليل اللاحق" و "الطبيعة"، و "أخلاق نيقوماخوس" و"أخلاق يوديموس" وأهم من هذا وذاك كتابه "وسائل اكتساب المعرفة " وهو اسم أطلق فيما بعد على عدد من الرسائل فى المنطق كانت كتبا دراسية أساسية فى المدرسة . وكانت كتب هذه الفئة هى أساس محتويات مكتبة أرسطو وقد ظل يحررها وينقحها حتى مماته .

ج) أعمال المؤلفين الآخرين . وقد تألفت أساسا من أعمال المؤلفين السابقين عليه والمعاصرين له والتى حصل عليها فى الأعم الأغلب عن طريق الشراء أو الإهداء على نحو ما جمعه له الاسكندر الأكبر وبعث به إليه كما ألمحت من قبل . ومن المؤكد أن هذه الفئة كانت تمثل قسما كبيرا من مقتنيات المكتبة وقد اعتمد عليها أرسطو فى استقاء مادة علمية لكتاباته أو لمجرد قراءة فلسفات الآخرين وعلومهم أو الإفادة منها فى الدروس التى يلقيها على طلابه . ومن بين تلك الكتب النسخة الوحيدة المعروفة لنا من كتاب (عن الطبيعة) للمؤلف هيراكليتوس . وقد أشرنا من قبل إلى أن هيراكليتوس نفسه قد أودع نسخة من هذا الكتاب فى معبد أرتيمس فى إفيسوس قبل زمن أرسطو بنحو قرن ونصف . وكان أرسطو ينصح تلاميذه دائمًا بدراسة أعمال المؤلفين قبل سقراط والإفادة منها وأخذ مذكرات منها وخاصة تلك الموجودة منها نسخ فى مكتبة الليكيوم . وأكثر من هذا وضع تكليفات قرائية وبحثية محددة لبعض أتباعه وعلى سبيل المثال كلف يوديموس بكتابة تاريخ الرياضيات والفلك وكلف مينون بكتابة التاريخ الباكر

للطب . وكلف ثيوفراستوس بنشر موسوعته الضخمة " مذاهب الفلاسفة الطبيعين".

وكان ينظر إلى أرسطو على أنه موالٍ للمقدونيين ولذلك فإنه عند وفاة الإسكندر الأكبر سنة ٣٢٣ ق.م. وحتى يتجنب انتقام الحزب المعارض للمقدونيين ، قرر أرسطو أن يغادر أثينا وذهب للعيش فى بيت أمه فى خالكيس فى يوبيا ، وهناك قضى الأشهر القليلة التى تبقت له فى عزلة ووحدة بعيدًا عن نخبة الطلاب القليلين الذين تحلقوه فى سنواته الأخيرة ومات أرسطو فى شهر أكتوبر ٣٢٢ق.م وهو فى الثالثة والستين من العمر . وقد أوصى فى وصيته بأمواله لمدير منزله هيربلليس ولو يوصِ بشئ من أجل مكتبته . وتذكر المصادر أنه لم يثبت لنا أنه اصطحب معه أيا من الكتب إلى خالكيس ، وتضيف المصادر أن ما حدث لمكتبته بعد وفاته يخرج عن نطاق الحقيقة إلى عالم الخيال والأسطورة .

لقد غادر أرسطو أثينا إلى خالكيس وهو لا يعرف متى يرجع إليها وكم تمتد إقامته بعيدًا عنها ، ولذلك يرى البعض أنه ربما يكون قد صحب معه عددا من الكتب ومن بينها مسودات كتبه التى كان يدرسها والتى كان قد بدأ فى تنقيحها وتحريرها وهذا لا يعنى فى نفس الوقت أنه جرد مكتبة الليكيوم من كل كتبه . وحيث ترك نسخًا موثقة من كل أعماله. ويرى البعض أن كتبه المتخصصة (فئة ب سابقة الذكر) قد آلت بعد وفاته إلى اثنين من طلابه المقربين إليه : ثيوفراستوس ويوديموس ، ويقال أن يوديموس حصل على قليل من كتب أستاذه وعاد بها إلى رودس بينما قام ثيفراستوس بالحلول محل أرسطو فى إدارة المدرسة التى تغير اسمها إلى مدرسة المشائين ومن ثم ظلت المجموعة الكبرى من مقتنيات المكتبة بالمدرسة وفى حوزة ثيوفراستوس .

ولد **ثيوفراستوس** فى إريسوس على جزيرة ليسبوس حوالى سنة ٣٧٠

ق.م. وكان أنبغ تلاميذ أرسطو وأصبح صديقا مقربا منه. وعندما ذهب أرسطو إلى منفاه الاختيارى، ظل ثيوفراستوس فى أثينا. ورغم أنه لم يكن مواطنا أثينيا إلا أنه تمكن بمساعدة ديمتريوس الفاليرى أن يحل محل أرسطو فى إدارة المدرسة. وقد ظل رئيسا للمدرسة منذ رحيل أرسطو وحتى وفاته هو سنة ٢٨٧ تقريبًا. وفى وصيته أوقف الحدائق والممشى وكل المبانى الملحقة بالحدائق لكل هؤلاء الراغبين فى دراسة الأدب والفلسفة معا.وتذكر المصادر أن الليكيوم على النحو الذى تركه أرسطو فى يد خليفته ثيوفراستوس لم يكن به المكتبة الخاصة به كما كانت أيام أرسطو. ولم تقدم المصادر أى تفسير أو تحليل لذلك. ولا يمكن أن يكون أرسطو قد جرد المكتبة من كل ما فيها عند مغادرته أثينا لأن الكتب كانت أدوات أساسية للتدريس فى المدرسة وللأسف فإنه علينا أن نجمع شذرات وتتفًا من المعلومات حتى نتتبع مصير هذه المكتبة .

لقد حقق ثيوفراستوس شهرة ومكانة عامة نتيجة الثقة التى وضعها أرسطو فيه ، وقد جعلت هذه الشهرة من اسمه نجما لامعا فى الإسكندرية المركز العظيم الجديد للحضارة والثقافة الهيلينية . ومع ذلك فقد اعتذر عن دعوة بطلميوس الأول له للحضور إلى الإسكندرية والتدريس فى مدرسة المتحف والعمل كحلقة وصل بين مدرسة الإسكندرية ومدرسة أثينا وآثر أن يبق فى أثينا ويواصل عمل أستاذه فى مدرسة أثينا . وقد بلغت كتاباته وحده ٢٣٢,٨٠٨ سطرًا ، وقد اشتملت مكتبته الخاصة على أعماله والمجموعات التى ورثها عن أستاذه أرسطو وعلى المجموعات التى اشتراها أو وردت عليه هدايا والتى استخدمها كمصادر فى التدريس والبحث والتأليف فى العديد من فروع المعرفة البشرية . وعلى العكس من أستاذه الذى لم يترك وصية بخصوص مكتبته قام يثوفراستوس بترك وصية تتعلق بالمكتبة نقلها لنا ديوجينيس لا يرتيوس ، جاء فيها "أترك كل كتبى إلى نليوس" .

من هذا المنطلق يمكننا القول بأن **نليوس** الذى تحدر من مدينة إسكيبيس الصغيرة فى ترود ، قد أصبح المالك الوحيد لمكتبتى ثيوفراستوس وأرسطو : والحقيقة التى تؤكد عليها المصادر الثقاة أنه لولا ارتباط اسم نليوس بمكتبة أرسطو لما عرفنا عنه شيئًا على الإطلاق ، وكل ما نعرفه عن أسرته هو اسم أبيه (كوريسكوس) . لقد كان نلي طالبا فى أكاديمية أفلاطون شأنه فى ذلك شأن أرسطو نفسه ، وعندما خلف سيبوسيبوس أفلاطون فى الأكاديمية ، ارتحل نليوس مع أرسطو إلى بلاط هيرمياس ، وهو عبد خصى نصب من نفسه حاكما على مدينتى أسُوس وأتارنيوس . وكان هيرمياس هذا مهزوز الأخلاقيات ولكنه كريم طيب القلب كانت له صلات ما بالبلاط المقدونى وارتبط بصداقة حميمة مع أرسطو وعامله معاملة كريمة خلال إقامته فى أسوُس . وعند وفاة هيرمياس كتب أرسطو مرثية شعرية يرثوه فيها .

ولكن ما الذى دعا ثيوفراستوس إلى أن يوصى بكل كتبه بما فيها تلك التى آلت إليه من أرسطو إلى نليوس وهو رجل فى مثل سنه ولم يكن باحثا متمرسا وقدرته على التدريس فى مدرسة المشائين مشكوك فيها . وربما كانت الصداقة التى جمعت بين نليوس وأرسطو والتى شه عليها ثيوفراستوس والرابطة التى ربطتهما فى بلاط هيرمياس فى أسوُس ، وكذلك الدعم الذى حصل عليه نليوس من ديمتريوس الفاليرى حاكم أثينا ، كانت جميعها من الدوافع التى رجحت كفته عند ثيوفراستوس . وعندما ورث نليوس مكتبة ثيوفراستوس كان يتوقع أن يخلفه رئيسا لمدرسة المشائين ولكن خاب أمله فى ذلك . وعندما تولى ديمتريوس بوليوكريتس السلطة فى ٣٠٧ ق.م. وجد نفسه بعيدا تماما عن أية قوى مساندة له . ومن هنا تقاعد نليوس فى مدينته مسقط رأسه حاملا معه كثيرا من الكتب التى كانت فى يوم من الأيام فى مكتبة أرسطو الشخصية. ولكن ماذا حمل معه نليوس من كتب وماذا خلف وراءه؟ سؤال صعبة الإجابة عليه إلا بشق النفس وعلى سبيل التخمين . لقد

قيل أن نليوس فى عهد بطليموس الثانى فيلادلفوس (٢٨٥ – ٢٤٧ ق.م.) باع أو أهدى إلى مكتبة الإسكندرية أصول المخطوطات الأرسطية أو ربما نسخًا منها فى أقوال أخرى . وليكن ذلك ولكن من المحتمل أن جانبا من كتب مكتبة أرسطو قد آلت إلى ورثة نليوس وهم الذين قاموا بإخفائها فى كهف عندما بدأ الملك يومينيس الثانى ملك برجاموم بحملات واسعة لجمع الكتب لمكتبته العظيمة فى برجاموم ، وحيث خشى هؤلاء الورثة أن يضطروا إلى تسليم هذه المجموعات الثمينة إلى الملك . ويقال أن الورثة أنفسهم لم يستردوا تلك المجموعة من مخبئها أبدًا وبقيت المجموعة فى الكهف منسية يصيبها البلى والتفسخ .

أما الحلقة الثالثة فى حياة مكتبة أرسطو الشخصية بعد وفاته فقد كانت شخصًا يدعى **أبيليكون** فى القرن الأول قبل الميلاد . وقد ظهر هذا الرجل على مسرح الحياة الفكرية فى أثينا بطريقة غريبة فقد ولد أبيليكون فى تيوس بآسيا الصغرى وأصبح مواطنا أثينيا بالتطبيع . ولقد كان هذا الرجل صاحب نزوات متقلب الطبع ، وصف نفسه بأنه فيلسوف من الفلاسفة المشائين فى وقت كانت المدرسة فيه مغلقة ، وكان يستمتع بإعطاء أمواله للكتاب والمؤلفين على أمل أن يقال عنه أنه راع للأدب والفكر على الرغم من أنه كما قال عنه سترابون مغرما بالكتب أكثر من غرامه بالفلسفة ولكى يحقق طموحاته نحو الكيف عمد إلى سرقة بعض الوثائق الأصلية من دار الأرشيف العام فى أثينا وهى جريمة فى قانون أثينا عقوبتها الإعدام ولكنه أفلت من هذه العقوبة بتدخل من جانب حاكم المدينة أثنيون الذى كان صديقا له وبينهما اهتمام مشترك هو الفلسفة المشائية وقد حففت العقوبة من الإعدام إلى النفى لفترة خارج أثينا .

وعبر بحر إيجة وعلى شواطئ آسيا الصغرى كان حاكم برجاموم الملك أتالوس الثالث فيلوميتور قد أوصى بمملكته إلى مجلس الشيوخ

الرومانى عند وفاته سنة١٣٣ق.م. وبسبب الاضطرابات التى قامت هناك فى برجاموم لم يستطع الرومان بسط سلطانهم على المملكة وتسبب ذلك فى تقلص مساحة المملكة إلى ولاية شبه مستقلة، وبعد أن تمكن الرومان من السيطرة على برجاموم وبسطوا سلطانهم عليها أصبحت ولاية رومانية فى نفس ذلك الوقت تذكر بعض خلف نليوس خبيئة كتب أرسطو وتمكن من استعادتها واسترجاعها على أمل بيعها . وبطريقة أو أخرى سمع أبيليكون بهذه الكتب ولم يضيع وقتا بسبب هوسه بفلسفة أرسطو فتقدم إلى شراء الكتب ودفع فيها مبلغا ضخما من المال . وبهذه الطريقة فإن ما خلفه أرسطو من كتب وربما كتب أخرى شق طريقة عائدًا إلى أثينا ؛ وبهذا تمكن أبيليكون من أن ينصب نفسه حاميا لكل العلوم والمعارف وقلعتها ، ولكى يدهش أهل أثينا قام بتحرير وتحقيق ونشر أحد أعمال أرسطو من مخطوطة ناقصة مستخدما خياله فى سد الأجزاء الناقصة. ولقد أسفرت أريحية الرجل عن أثر إيجابى خدم به كتب أرسطو وجانبا من مكتبته حيث يقول سترابون أن الرجل أعد نسخاً جديدة من تلك الكتب قدمها إلى مدرسة المشائين وأكاديمية أفلاطون مما حفظ أعمال الرجل للأجيال المتعاقبة .

ولم تكن تلك هى نهاية القصة ، قصة مكتبة أرسطو الخاصة، ذلك أنه خلال الجرب الميثراداتية الأولى قام أهل أثينا بثورة عارمة ضد الرومان ورفعوا أبيليكون حاكما على البلاد . وفى سنة ٨٦ق.م. وبعد حصار طويل لأثينا استولى القائد سوللا على أثينا وقتل أبيليكون وكان من بين الأسلاب التى حملها سوللا الى روما مكتبة أبيليكون الخاصة أو بعبارة أخرى بقايا مكتبة أرسطو ومخطوطاته الموثقة ؟

ولعل آخر حلقات مكتبة أرسطو هو شخص يونانى آخر ولسخرية القدر فى روما هذا الإغريقى فى روما هو " تيرانيو الأب" والذى ولد فى أميسوس على ساحل البحر الأسود لآسيا الصغرى والذى درس على يد اللغوى البارع

ديونيسيوس من تراقيا وفى خلال الحرب الميثراداتية الثانية أخذ تيرانيو أسيرا ولكن من حسن حظه أن آسره كان لوكولوس ، وهو محب للهلينية فعامله معاملة رقيقة وأخذه تحت جناحه فى روما واصحبه معه حيث ذهب وبالتالى كان لديه حرية الحركة فى معظم المحافل الأدبية فى المدينة . وكان لوكولوس من أكبر عشاق الكتب فى زمانه جمع حوله نخبه من الإغريق ذوى الميول والاهتمامات الفكرية والفنية . وبفضل هذا الرجل استطاع تيرانيو أن يكسب صداقة ورعاية عدد من الرومان ذوى الحيثيات بمن فى ذلك يوليوس قيصر وشيشرون وأتيكوس . وكان تيرانيو من أتباع أرسطو ومحبا للكتب ويقال أنه جمع فى مكتبته الخاصة ٣٠,٠٠٠ لفافه وبسبب صداقته مع سوللا وأمين مكتبته استطاع أن يستعير مخطوطات أرسطو.

وإلى جانب جمع الكتب لمكتبته الخاصة قام تيرانيو بجهود جادة لتصنيف وتحرير ونشر أعمال أرسطو . وقد رأى فى نفس الوقت مجموعات الكتب اليونانية الكبيرة وقد أخذت أسلابا إلى روما ومن ثم استخدم معلوماته ومعرفته فى تحقيق أقصى استفادة منها وعمل مستشارا لناشرى تلك الكتب . ولقد تعاون إلى أبعد حد مع شيشرون فى تنظيم مكتبات هذا الأخير كما سنرى فيما بعد وقدم له نصائح قيمة حول مشروعات للكتابة فيها ومن بينها كتابه الكبير حول الجغرافيا الذى بناه على أعمال أراتوثينز ، والذى بدأه شيشرون ولم يتمه أبدًا . وعندما مات سوللا وقام إبنه بوراثه كل كتبه وممتلكاته ، تمت إعادة كل كتب أرسطو الأصلية الموثقة إلى مكتبة سوللا ، تلك الكتب التى كان تيرانيو قد استعارها على نحو ما أسلفت . وقد رفض ابن سوللا المدعو فوستوس أن يعير أيا من كتبه خارج المكتبة التى ورثها ، ومن أراد أن يقرأ أو يطلع على أى من تلك الكتب كان عليه أن يحضر إلى فيللا فوستوس شخصيا للاطلاع الداخلى مما حول مكتبة فوستوس سوللا إلى مركز من مراكز الحياة الفكرية فى روما . وهناك فى تلك المكتبة استطاع

شيشرون فيما بعد أن يقرأ كتب أرسطو المتخصصة وكان بعضها فيما يذكر شيشرون بخط أرسطو نفسه .

ومن الجدير بالذكر أن سترابو الذى كان فخورًا جدًا بأنه كان يحضر محاضرات تيرانيو فى روما حوالى سنة ٤٠ ق.م. لم يجد بعد ذلك معلومات جديدة يقدمها لنا عن كتب أرسطو. ولسبب أو لآخر عزف تيرانيو عن مشروعه الرامى إلى تصنيف ونشر أعمال الفيلسوف أرسطو وعهد بذلك إلى أحد الباحثين الشبان اللامعين النابهين ألا وهو أندرونيكوس من ردوس وقد بدأ فى المشروع بعد وفاة شيشرون وعكف على إنجازه بين ٤٠ و ٢٠ ق.م. وهى فترة تتداخل مع فترة وجود المؤرخ العالمى القديم ديونسيوس من هاليكارناسوس فى روما . وبمجرد نشر أندرونيكوس لكل أعمال أرسطو وإتمامه هذا المشروع تجددت الرغبة والاهتمام بأعمال أرسطو ودراساته . والطريف أنه عن طريق الناشر أتيكوس الذى دعم نشر أعمال أرسطو أصبحت روما المركز الذى تنطلق منه فلسفة وفكر أرسطو إلى كل الولايات الناطقة باليونانية فى الامبراطورية الرومانية . ومن سوء حظ النسخ الأصلية من أعمال أرسطو أن فوستوس بن سوللا قد أفلس بسبب بذخه وحبه الشديد للمظاهر ، واضطر إلى بيع كل ممتلكاته بما فى ذلك المكتبة : مخطوطات أرسطو الأصلية ومخطوطات ثيوفراستوس وغير ذلك مما كان قد تجمع لديه وبعد ذلك التاريخ لم نعد نسمع عن كتب أرسطو .

* * *

عند هذه النقطة يكون قد ألقينا الضوء ورسمنا الخطوط العامة على الظروف التى تكونت فيها أول المكتبات الشخصية والدور الذى لعبته فى تطور وتقدم التفكير العلمى والفلسفى فى المدارس التى قامت آنذاك . وفى ختام هذه العجالة عن المكتبات الشخصية فى عالم اليونان القديم قد يكون من المناسب أن نتوقف أمام أحد النصوص التى تتهكم على الكتب ، وهو النص

اليونانى الوحيد المكرس كله للحديث عن موضوع الكتب وهو متـآخر فـى تاريخه وأكثر من هذا لم يدون إلا فى القرن الثانى الميلادى . وهذا الـنص يعكس تقاليد الفترة الكلاسيكية اليونانية . ويذكرنا بقوة بمحاورة سقراط مـع يوثيديموس كما خلدها زينوفون .

هذا النص يحمل عنوان "إلى جمَّاع الكتب الجاهل ": وقد كتبه الهجَّـاء الساخر الذى يسخر من كل الغباوات الإنسانية ألا وهـو لوكيـان (١٣٠ - ٢٠٠م) . وقد قدم هذا النص إلى شاب رفض أن يعيره كتابا طلبـه . وقـد سخر لوكيان من ضحيته ووصفه بأنه غير قادر على التمييز بـين الكتـب القديمة والقيمة ، وتلك الكتب الغثة التى يدفعها باعة الكتب إلى السوق دفعًـا ويذكره بأنه لن يكون قادرًا أبدًا فى يوم من الأيام على أن يكون رجلا متعلما حتى لو اشترى كل المخطوطات الأصلية التى كتبها بخطه ديمـوثينز وكـل الكتب التى استلبت من أثينا على يد سوللا " وفى النهاية فإن الفـرد سـيظل فردًا حتى لو طوقوا عنقه بعقود من الذهب " . ويسخر منه لأنه لا يـستطيع أن يرى من خلال التظاهر الذليل الذى يمارسـه ولا يـدرك أن أصـدقاءه يسخرون منه ويضحكون عليه من وراء ظهره عندما يرونه حاملا دائمًا لفافة جميلة ذات مقابض من ذهب وحاوية قرمزية . وهو يقارن جمـاع الكتـب الشاب الجاهل بطاغية سراقوسة (سيراكيوز) ديونيـسيوس الـذى أراد أن يكتب التراجيديات واشترى لوح الكتابة الذى كان اسخيلوس يستعمله علـى اعتقاد منه أن ذلك يجعل منه شاعرا عظيما . ويستمر لوكيان فـى قولـه : طالما أن لديك نسخا كثيرة من أعمال هوميروس فلماذا لا تقرؤها . إنك لـن تجد فيها من الناحية العملية شيئا ينطبق عليك ؛ ولكن دع عقلك يستـضيف الصورة الساخرة (الكاريكاتيرية) للرجل القبيح المشوه ثيوساتيس الذى ظن أنه عندما يلبس درع أخيليس فإنه سوف يتحول إلى بطل وسـيم ؟ ويقـارن لوكيان أيضا ذلك الشاب الغبى بـ "ببللوروفون الذى حمل معه خطايا يحتوى

على قرار إعدامه ، ويذكره بقصة ديمتريوس الكلبى (الكلبيون فئة خاصة من الفلاسفة اليونان) الذى مر برجل جاهل يقرأ كتاب يوريبيدس "رفيقات باخوس" بصوت عال فى كورنثه : وعندما وصل القارئ إلى النقطة التى يسرد فيها مصير بنثيوس المرعب الرهيب ، خطف ديمتريوس الكتاب من يد القارئ ومزقه فى غضب صائحًا : إنه من الأفضل لـ بنثيوس أن يمزق قطعًا مرة واحدة وللأبد من أن يمزق مرارًا وتكرارًا على يدك" . وهذه إشارة واضحة إلى أن القارئ لم يكن يجيد القراءة ، ولذلك كان يكرر بتثاقل هذا المشهد من القصة .

يبقى لنا فى مطارحة الكتب والمكتبات عند اليونان ثلاث جزئيات هى : تجارة الكتاب فى العالم اليونانى والمواد التى صنع منها الكتاب اليونانى ثم عمارة أو مبانى المكتبات اليونانية .

أما عن تجارة الكتب فى بلاد اليونان أو لنقل نشر الكتاب اليونانى فإنه من المتفق عليه أن أثينا كانت القوة الفكرية الدافعة فى العالم الإغريقى وكانت مركز تجارة الكتب ونشر الكتب فى العالم اليونانى على الأقل مع نهاية القرن الرابع قبل الميلاد على الرغم من أنها ليست مهدا للكتب البردية أو مهدا للمكتبات الخاصة ، ومنذ بداية القرن الخامس قبل الميلاد طار الفلاسفة جماعات إلى أثينا بأعدادا متزايدة من كافة المناطق التى استقر بها الإغريق من جنوبى إيطاليا وحتى شواطئ آسيا الصغرة ، ومن البحر الأسود وحتى رودس . هذا التدفق العظيم للباحثين أدى بالضرورة الى تراكم رصيد هائل من المعرفة فى أثينا ومن ثم لم يكن من سبيل إلى اختزان هذه المعرفة الجمة إلا الكتب ، وأكثر من هذا هناك أكثر من سبب يحملنا على الاعتقاد بأنه كانت هناك صناعة وتجارة نشر قوية فى هذه الكتب بين أثينا وبقية العالم اليونانى.

يصف كزينوفون فى كتابه (الحملة العسكرية) رحلة العودة المضنية

للجيش اليونانى من بلاد فارس فوق جبال البحر الأسود هابطين إلى البوسفور ويذكر أنه بالقرب من سالميديوس أتى الجنود على سفينة محطمة محملة بأقفاص تحتوى على أدوات منزلية وكتب ، وكان من الواضح أنه كان على متن هذه السفينة أشخاص كانوا يدرسون فى أثينا وعادوا إلى ديارهم بكتب من أثينا ليعيشوا جو الفكر الذى كانوا عليه فيها وتعودوا عليه . ويسجل ممنون فى (التاريخ) الذى لم يصلنا وإنما وصلنا منه فقط مستخرجات نقلها فوتيوس فى كتابه (المكتبة) أنه حاكم بيثينيا المدعو كليرخوس عندما رجع إلى بلده بعد دراسته فى أثينا على يد أفلاطون وإيزوقراطيس ، أسس مكتبة فى بلده فى وقت ما ليس بعد سنة ٣٦٤ ق.م. وثمة قصة أخرى طريفة تحكى عن شخص اسمه بيون ، من وادى دنيبر شمال البحر الأسود ، هذا الرجل بيع فى سوق العبيد مع كل أفراد أسرته بسبب ضبط أبيه متلبسا فى قضية تزوير ضرائب . وعند وفاة الخطيب الذى اشترى هذا العبد (بيون) ، ورث بيون مملتكاته وعهد بها إلى أثينا لدراسة الفلسفة ، إلا أنه قبل رحيله أحرق كل الكتب التى ورثها عن سيده .

والجزئية الثانية فى سياقنا هنا تدور حول المواد التى صنع منها الكتاب اليونانى رأينا فيما سبق صورة واضحة عن وجهتى النظر المتعارضين حول استخدام الكتب كوسيط لحمل ونشر المعرفة البشرية ، وعن كيف أثبت الكتاب نفسه وغدا وسيطًا هاما لنقل المعرفة وإن استمرت الرواية والمشافهة وسيلة أخرى إلى أن اختفت بالتدريج مع علو كعب الكتاب ، وربما كانت أول إشارة إلى ما يشبه الكتاب فى اليونان هى تلك التى وردت فى الإلياذة : عندما قدم بروتوس إلى بيلليورفون لوحًا مطويا" يحمل خطابًا مكتوبا عليه . ونحن نعلم أن الإغريق استخدموا فى البداية اللوح للكتابة كبديل للفافة أو الكتاب ، واستمروا فى استخدام اللوح حتى بعد دخول اللفافات البردية إلى مسرح الكتابة عند اليونان . وكما هو معروف كان اللوح المشار إليه عبارة

عن قطعة من الخشب الرقيق المحاطة بإطار وكان سطح هذا الخشب يغطى بطبقة من الشمع المخلوط بمزيج من الشحم وكان يستخدم للكتابة على هـذا الشطح أو إن شئنا الدقة الحفر عليه بنوع من الأقلام المعدنية المدببة . وكان من الممكن أن يضم لوحان أو أكثر معا بشرائح من الجلد أو الدوبارة ممـا يجعل منها كتابا متعدد الأوراق وإن قلت مما كان يطلق عليه آنذاك اللـوح متعدد الأوراق ، كما قال عنه يوريبيدس .

ومن الثابت تاريخيا أن ألواح الكتابة الخشبية هذه قد اسـتخدمت علـى نطاق واسع فى اليونان القديم قبل دخول البـردى ، اسـتخدمها البـاحثون والمؤلفون واستخدمها المدرسون كما استخدمها تلاميذ المدارس. وكانت هذه الألواح هى المادة الأساسية التى استخدمها الموظفون فى الدواوين والإدارات الحكومية لتسجيل البيانات والمعلومات والوثائق الإدارية والحكومية . وتذكر المصادر الثقاة أن الشروح والحواشى الأدبية ظهرت أول ما ظهـرت فـى ايونيا على شكل مذكرات غير منشورة يتم تداولها بين جماعات محدودة من الفلاسفة والطلاب . وقد رأينا فيما سبق كيف أن فيلـولاوس نـشر تعـاليم فيثاغوراس من مذكرات خاصة به كتبها على ألواح خشبية مشموعة ، وكيف أن فيليب من أوبوس أصدر طبعة من (قوانين) أفلاطون من المذكرات التى سجلها على ألواح الشمع . وكان سقراط يرى أن من واجب كل مؤلـف أن يخزن معلومات على مواد معينة يرجع إليها عندما يـصاب بالنـسيان فـى شيخوخته عندما يتقدم به السن . وربما تكون الألواح الخشبية قد اسـتخدمت أيضا فى كتابة المذكرات التى بعث بها آرخيتـاس إلـى أفلاطـون لزيـادة معلوماته حول الفلاسفة الطبيعين وعلماء الطبيعة . ويرد ذكر ألواح الخشب المشموعة عند أسخيلوس ، كما يرد ذكرها عند سوفوكليس ، وتذكر المصادر أيضا أن هناك عدد من الببليوجرافيات البدائية أو قوائم الكتب وجدت علـى ألواح خشبية على نحو ما أشار إليه ديوجينيس لا يرتيوس فى كتابه (حيـاة

كرايسبوس) . ونفس هذا المؤلف يسجل محادثة تمت بين الفيلسوف – الشاعر تيمون من فليوس (٣٢٠ – ٢٣٠ق.م. تقريبا) والخطيب زوبايروس تؤكد على أن هناك مذكرات مكتوبة على ألواح قد تم نقلها ونسخها على لفافات بردى بدون نظام معين ويذكر نفس المصدر أن تيمون كان يريد أن يقرأ قصيدة معينة لـ زوبايروس وكان عليه أن يفض اللفافة كلها ويتصفح ما يجد حتى وصل إلى الأبيات التى يريدها .

ونحن لا نعرف على وجه اليقين متى دخل ورق البردى مادة للكتابة فى بلاد اليونان ، وترجح المصادر أن مستوطنة نوكراتيس فى مصر كانت المركز التجارى الذى انطلقت منه لفافات البردى الأولى وصدرت إلى الدويلات الناطقة باليونانية فى القرن السادس قبل الميلاد . ولكن ما يزال السؤال مفتوحا مطروحا حول استخدام لفافات البردى فى الوثائق الرسمية . ونحن لم نعثر على لفافات بردية فى كريت العصر البرونزى حيث أن ما نعرفه حق المعرفة أن الوثائق هناك فى كريت كانت تكتب على ألواح طينية بخط الكتابة السطرية أ ، ب . وإن كان ذلك لا ينفى استخدام البردى لتسجيل الأعمال الأدبية ذلك أن بعض الأختام الطينية التى عثر عليها فى كنوسوس وأماكن أخرى تحمل آثار ألياف ورق البردى مما يعنى أن تلك الأختام استخدمت فى ختم أوراق البردى أو أن تلك الألياف استخدمت لربط الأختام إلى ورق البردى . وأول صورة لشخص يقرأ ورقة بردى أو كتابا برديا بمعنى أدق كانت تلك التى رسمها الرسام الأثينى أونيسيموس وترجع إلى سنة ٤٩٠ ق.م. تقريبا .

ويذكر أن أفلاطون (٤٢٨ – ٣٤٧ق.م.) عندما كان يستخدم كلمة كتاب (ببلوس) أو (ببليون) فإنه كان يقصد بها لفافه البردى . وكان المخطوط يكتب فى أعمدة متتالية من اليسار إلى اليمين بطول لفافه البردى . وكان يطلق علي الفرخ الواحد من لفافة البردى باليونانية مصطلح كوليما (بالعربية

الدَرْج) من الفعل يلصق حيث كانت الفروخ تلصق ببعضها البعض لتكون لفافه. وكان عرض العمود الواحد يتفاوت طبقا لطبيعة النص نفسه وحيث يكون العمود ضيقا فى حالة النصوص الخطابية وأعرض فى حالة كتب الفلسفة والتاريخ والحواشى . وكان طول اللفافة المصنعة للسوق اليونانية يتراوح عادة ما بين سبعة وعشرة أمتار ولكن وصلتنا لفافات من بينها نسخة من محاورة أفلاطون فايدروس والكتاب الثانى من تواريخ هيرودوت ، تصل إلى سبعة عشر مترا ، وكان الناسخ عندما يصل إلى نهاية اللفافة يضع قضيبا من معدن أو خشب أو أبنوس أو سن الفيل – وأحيانا من ذهب – ليكون مقبضا تلف عليه اللفافة وفى الأعم الأغلب يكون على هامش العمود الأيمن الأخير . وكانت أطراف المقابض تزخرف عادة بزخارف بارزة (فى حالة الكتب أو النسخ الفاخرة) وقد جرت عادة الرومان على وجه الخصوص أن يصنعوا المقابض من معدن ثمين يرصع بالجواهر . وربما كانت هناك جزازة تربط بخيط إلى المقبض وكانت الجزازة من الجلد وعلى شكل مثلث يسجل عليها العنوان أو محتويات العمل أو أى شئ يميزه لتسهيل الاسترجاع.

إلى جانب ألواح الخشب ولفافات البردى جاء وقت على الإغريق استخدموا فهي جلود الحيوانات أى الرقوق فى الكتابة ، ولقد ذكر هيرودوت أن أهل أيونيا استخدموا دائمًا كلمة جلود لتعنى الكتب ، لأنه جاء عليهم وقت استحال فيه الحصول على ورق البردى فاستخدموا جلد الماعز والغنم بعد دباغته للكتابة عليه على نحو ما استخدمته بعض الشعوب على أيام هيرودوت نفسه . وعبارة هيرودوت فى غاية الأهمية لأن بعض المصادر ذكرت أن الرقوق حلت محل البردى لأسباب عديدة وليس بسبب صعوبة الحصول عليه . وأن أول من بدأ بذلك هم أهل أيونيا وليس أهل برجاموم كما تردد المصادر . وتشير كل الأحداث إلى أن أهل أيونيا استخدموا الجلود

بسبب نقص إمدادات البردى لعوامل سياسية فى العقود الأولى من القرن الخامس قبل الميلاد ، وقد وردت عند ديودوروس الصقلى أن ستيسياس من سنيدوس مؤلف كتاب (شئون فارسية : بيرسيكا) قد علم نفسه بنفسه اللغة الفارسية عن طريق قراء كتب فارسية مكتوبة على جلود ماعز وغنم . ومهما يكن من أمر فإن الكتب المكتوبة على رقوق قد عرفت فى أثينا . وقد علق يوربيدس – الذى كانت مكتبته الشخصية كبيرة – على تلك الحقيقة قائلا " جلود عليها كتابات سوداء" .

أما الجزئية الثالثة فى ختام هذه المطارحة فإنها تتعلق بعمارة المكتبات اليونانية أى بمبناها وحيث لم تصلنا إلا نتف من المعلومات لا نستطيع منها أن تكون صورة واضحة الحدود والمعالم والأبعاد عن هذا الجانب .

ولعل أقدم إشارة عن مكتبة يونانية هى تلك التى وردت فى كوميديا (لينوس) التى كتبها ألكسيس فى مطلع القرن الثالث قبل الميلاد وحيث يحث لينوس تلميذه هيراكليس أن يتصفح الكتب الموجود فى المكتبة ويلتقط أى كتاب يريده من بين أعمال أورفيوس ، هيسويد ، هوميروس إيبخارموس ، كيوريلوس ، بيد أن الكاتب لم يقدم لنا وصفا لحجرة المكتبة والحالة التى كانت عليها الكتب وكيف كانت الكتب محفوظة فى خزائنها . ولقد خاب ظن لينوس فى تلميذه هيراكليس حيث اختار هذا الأخير الذى سماه أستاذه : الفيلسوف الحقيقى " كتابا فى الطهى للمؤلف سيموس .

ومن الجدير بالذكر أنه كما قال سكتوس بومبيوس فستوس أن كلمة "مكتبة" عند الإغريق استخدمت لتعنى مجموعة كبيرة من الكتب أو المكان الذى تحفظ فيه هذه الكتب .

ومن الواضح من الحفريات التى كشفت عن مكتبة الأكروبوليس فى برجاموم أنه حتى فى الحقبة الهللينية كان الإغريق يضعون مكتباتهم فى مبان متواضعة الحجم غير متميزة عن سائر المبانى حتى الزخارف لم تكن تتميز

فى شئ خاص بها . وكل ما كان هناك وسائل حفظ خاصة لورق البردى ليبقى فى حالة جيدة . وكل ما يمكننا قوله فى هذا الصدد أو نفترضه أن مكتبات مدارس الفلسفة فى بلاد اليونان كانت توضع قريبه من قاعات المحاضرات حتى تكون فى متناول الطلاب والمدرسين وكانت فى الأعم الأغلب فى مبنى منفصل ومستقل وتفتح على فناء المبنى الرئيسى أو فناء آخر داخلى . ورغم المعلومات التى وصلتنا عن أن الليكيوم (مدرسة ارسطو الفلسفية) كان بها مكتبة غنية بالمجموعات إلا أنه لم تصلنا معلومات عن المبنى الذى وضعت فيه المجموعات . وللأسف فإن المعلومات الخاصة بمدرسة أرسطو تناولت مبنى المذبح ، ضريح ربات الفنون ، قاعات الدراسة، تلك القاعات التى لم تكن تستخدم فقط للدروس والمحاضرات وإنما أيضا للندوات وقد وصلتنا رسومات كروكية لتلك المبانى .

ويعتقد الثقاة أن المكتبات الخاصة والعامة على السواء فى الحقبة الكلاسيكية كانت تصمم على نفس النمط والشكل المعمارى الذى كانت عليه القاعات التى استخدمت لنفس الأغراض فى عصر ما قبل سقراط أى المكتبة – الأرشيف أو المكتبات الأرشيفية . ورغم غياب القرائن المادية القوية فإنه يبدو لنا أن المكتبات اليونانية الكلاسيكية قد احتذت الأنماط الشرقية (المصرية ، العراقية) مع اختلاف فى نظم الخزن والتصنيف المتبعة وذلك طبقا لنوع المواد المكتبية وفطنة أمين المكتبة والمهندس المعمارى . ومن المعتقد أنه كانت هناك فجوات داخل حوائط حجرة المكتبة مثل عيون الحمام لتوضع فيها الأسطوانات الحاوية للفافات البردى كما كانت هناك رفوف من خشب أو مرمر إلى جانب رفوف مدعومة بحواف من برونز تسير بحذاء الحوائط على نحو ما نجده فى أيامنا ؛ وكانت لفافات البردى ترص فوق بعضها وتتدلى من كل منها الجذاذات الدالة عليها .

وقد نقل شيشرون عن ديموثينز تصوره للمكتبة فى الحقبة الكلاسيكية

كيف تكون ولأيَّة أغراض ؛ بل وكيف يكون الإحساس بها . وعلى عكس ما كان عليه الباحثون ورجال الأدب فى الحقبة الرومانية ، فقد كان ديموثينز يرى المكان والبيئة الملائمين للتفكير والتأمل والكتابة والقراءة يجب أن يكونا عبارة عن غرفة أو قاعة منعزلة بدون نوافذ قدر الإمكان وبدون ضوء طبيعى وحيث لا يكون هناك شئ مسموع أو مرئى يعكر صفو التفكير أو يشد انتباه الرجل . وعلى ضوء المصابيح وفى هدأة الليل وجد ديموثينز الصفاء الذهنى والسلام العقلى والقوى الداخلية الدافقة الدافعة اللازمة له فى كتاباته . وفى غرفة بتلك المواصفات وضع ديموثينز كتبه وأعماله . إذن من هذه الصورة يجب أن نتوقع أن قاعة المكتبة الشخصية كانت تصمم طبقا لرغبات صاحب المكتبة ولابد أنها كانت تختلف من شخص إلى شخص فالشخص الكاتب المؤلف المبدع غير الشخصى القارئ فقط . ولابد أن تصميم المكتبات العامة وإن ندرت فى تلك الحقبة كان حتما يختلف عن المكتبات الشخصية .

وفى حدود وعينا التاريخى ومعلوماتنا عن المكتبات اليونانية فإن أقدم إشارة إلى خزانة الكتب فى الحقبة الكلاسيكية كانت تلك التى وردت فى تقرير عن بيع ممتلكات ألكبياديس الشخصية سنة ٤١٥ق.م. وحيث كان من بين الأشياء المعروضة للبيع صندوق به بابان وأربعة أبواب اى دولاب أو خزانة بها درجان من أعلى وأربعة أدراج من أسفل) كان يحفظ فيه ألكبياديس كتبه أى لفافاته البردية .

مكتبات أخرى فى الحقبة اليونانية

كما رأينا من قبل جسدت مكتبة الإسكندرية القديمة السيادة الفكرية على كل العالم القديم المعروف آنذاك وفى مكتبة الإسكندرية تمت أعظم الانجازات فى مجال الأدب ونقد النصوص (الببليوجرافيا النصية أو النقدية) حتى منتصف القرن الثانى قبل الميلاد . ومع كل ذلك فقد شهدت نفس الفترة إنشاء

المكتبات ودراسات النصوص فى العديد من الممالك التى حكمها خلفاء الاسكندر الأكبر . كذلك فإن كثيرا من المدارس والمراكز الفكرية التى أسست فى الحقبة الكلاسيكية اليونانية نجحت فى الحفاظ على استقلالها عن الملوك المقدونيين . وفى نلقى فى هذه الجزئية من البحث بعض الضوء على مكتبتين من المكتبات التى وجدت فى عهد خلفاء الاسكندر وصلتنا عنهما معلومات هامة : أولاهما مكتبة برجاموم التى أسسها الملوك الأتاليون هناك وثانيتهما المكتبة الأرشيفية التى قامت فى نقطة من أبعد مناطق العالم اليونانى وهى مكتبة آى خانوم فى بكتريا .

مكتبة برجاموم : برجاموم مدينة مملكة لا تبعد كثيرا عن شاطئ إيجة فى غربى آسيا الصغرى وقد ظهرت إلى الوجود بعد الحرب الإقليمية (٢٨٢ – ٢٨١ ق.م.) بين كل من لايسيماخوس وسلوقس الأول : وحتى ذلك الحين كانت برجاموم تحت حكم لايسيماخوس والذى كان ساعده الأيمن فيليتايروس من تييم ، وفى نفس الوقت وزير الخزانة الملكية ، وعندما قتل لايسمياخوس سلم فيليتايروس إلى سلوقس تسعة آلاف تالنت من خزانة برجاموم واستطاع بدهائه ان يستخلص لنفسه مملكة . هذه المملكة نجح خلفاؤه أتالوس الأول ويومينس الثانى فى توسيعها ، ومن المعروف أن يومينس الثانى هذا اجتث السلتيين الذين كانوا يغيرون للسلب والنهب ، كما استطاع بمساعدة الرومان قهر السلوقيين سنة ١٩٠ ق.م. وفى نفس الوقت بذلت مجهودات منظمة لتحويل برجاموم إلى مركز فكرى عظيم للبحث العلمى والفنون فى العقود الأولى من القرن الثانى قبل الميلاد ، واستمرت تلك الجهود حتى سنة ١٣٣م حين تم التنازل عن برجاموم للرومان .

ونحن لا نعرف على وجه اليقين ما إذا كان أتالوس الأول (٢٤١-١٩٧ق.م.) قد اتخذ خطوات إيجابية لإنشاء مكتبة تنافس مكتبة الإسكندرية ، مكتبة البطالمة ولذلك يميل مؤرخو المكتبات إلى اعتبار يومينس الثانى الذى

اعتلى الحكم من ١٩٧ حتى ١٥٨ ق.م. هو المؤسس الحقيقى للمكتبة . وكان ملوك الاتاليين كالبطالمة فى مصر يسعون إلى إحاطة مكتبتهم بكل مظاهر العظمة والأبهة وتحقيق مكانة رفيعة لها وضمان أقصى درجات النجاح لها وذلك عن طريق تعيين عالم من علماء مدرسة المشائين مديرا لها ولكن (لاسيدس) و (لا يكون)اعتذرا بأدب عن تقلد هذا المنصب ولم يذهب أيهما إلى برجاموم . كذلك لم يستطع أرستوفانيس البيزنطى الذهاب إلى برجاموم لأن بطلميوس الخامس صمم على إبقاء الباحثين والعلماء فى متحف الاسكندرية ولو استخدم القوة فى هذا الصدد . وهكذا لم يستطع يومينس الثانى اجتذاب إلا الفيلسوف الرواقى كريتس من ماللوس الذى وافق على الانضمام إلى بلاط برجاموم .

ويرى الثقاة أنه طبقا لمجريات الأمور لم يسع ملوك برجاموم إلى أيه منافسة مع متحف الإسكندرية بإنشاء مدارس للشعراء أو لنقاد الأدب . ففى برجاموم لانجد تلاميذاً يخلفون أساتذتهم . ولم نجد فى برجاموم إلا فلاسفة وهم فى الأعم الأغلب من الرواقيين وربما انعدم تماما وجود نقاد النصوص والأدب . ولم يكن لمدير المكتبة كرتيس من ماللوس ولا لمن تحلقه من مفكرين انجازات ذات بال فى مجال دراسات النصوص ، لقد كان حظنا أسعد فيما يتعلق بمكتبة برجاموم عنه فيما يتعلق بمكتبة الاسكندرية حيث كشفت الحفائر الأثرية عن مبنى مكتبة برجاموم ؛ وإن كانت المعلومات تتصل بالمبنى والعمارة أكثر من أى شئ آخر .

وتؤكد المصادر على ان أزهى فترة فى حياة المكتبة أو بمعنى آخر الفترة التى نعرف عنها أكثر من غيرها كانت عهد يومينس الثانى . ويبدو أن كريتس كان هو الشخص الذى وسع المكتبة توسيعا كبيرا وكان المحرك الأول فى مجال الدراسات والبحوث التى تمت فى المكتبة . إلا أنه للأسف فإن القرائن التى وصلتنا لا تتضمن حقائق بقدر ما تتضمن من قصص

وروايات ترتبط بازدياد الاهتمام بالمكتبة والكتب والأسباب التى أدت إلى ظهور عدد من الأعمال الفكرية المزورة .

وكما ألمحت ولد كريتس فى ماللوس فى سيلسيا وطبقا لموسوعة سودا كان الرجل لـ أرستارخوس ، ولا نعرف شيئا عن دراساته أو اسم استاذه . وقد استخدم كريتس مدخل المجاز والاستعارة فى تفسير وشرح الشعر الذى استخدمه الرواقيون بادئ ذى بدء وكان تركيزة الأساسى على شعر هوميروس ، وكذلك اتبع نهج الرواقيين حول الاستثناءات فى الكلمات ، وكان التلميذ الوحيد المتميز بين تلاميذ كريتس هو الفيلسوف بنايتوس . ولعل أعظم إنجاز حققه كريتس هو حمل الرومان على دراسة النحو واللغة أثناء إقامته الطويلة بينهم فى روما سنة ١٦٨ق.م. وليست هناك أية قرينة مباشرة أو غير مباشرة على أنه كانت له صلة ما بإعداد الفهرس المجهل (بناكيس) لمكتبة برجاموم ؛ وذلك على العكس من فهرس مكتبة الإسكندرية ، وفهرس مكتبة برجاموم لا يمكن أبدا أن يقارن بفهرس كاليماخوس الذى أعده لمكتبة الإسكندرية .

والحقيقة أنه ليست لدينا معلومات كافية عن حجم المجموعات والمكادة التى كتبت عليها فى هذه المكتبة ، والمعلومة التى وصلتنا عن جانب من المجموعات ذكرت فى مصدر واحد ولم تتردد فى أى مصدر آخر . هذا المصدر هو كتاب بلوتارخ (كاتب سير يونانى ٤٦-١٢٠م) "حياة أنطونيو " وبلوتارخ نفسه يعبر عن تحفظاته حول مصداقية هذه الرواية لأن ناقلها شخص مغمور إسمه (كالفسيوس سابينوس) كان على عداء مع مارك أنطونيو . والرواية مشهورة وتقول بأن مارك أنطونيو حمل مجموعات مكتبة برجاموم وقدمها إلى كليوباترا تعويضا لها عن حرق يوليوس قيصر لمكتبة الاسكندرية (٤٨ ق.م.) وكان قوام تلك المجموعات ٢٠٠,٠٠٠ لفافة . ولابد من التنبيه إلى أن هذه الرواية لم يذكرها أى مؤرخ حتى جالينوس الأكبر

المؤرخ الخصب مواطن برجاموم ولا تلميذه تابعه تليفوس اللغوى الشهير .

ومما يذكر أيضا فى هذا الصدد أن منصب مدير المكبتة الـذى أشـرنا إليه من قبل لم يرد على تلك الصفة التى اوردناها الا فى مصدر واحد وهو كتاب ديوجينس لا يرتيوس (حياة زينون) وكان هذا الكتاب يناقش أعمـال المؤلفين الذين كتبوا عن فن الحب ويؤكد على أن الفيلـسوف أثينـودوروس الرواقى الذى كان مسئولا عن الكتب فى مكتبة برجاموم حذف بعض الفقرات من الكتب مما أثار سخط الرواقيين وأدت إلى القبض عليه ومحاكمته . وبعد تلك الحقبة وفى سنة ٧٠ ق.م. ارتحل أثينودوروس –الذى كان مقربـا مـن أنتباتير من تاير وديودوروس وكلاهما من اتباع شيـشرون _ إلـى رومـا وأصبح صديقا لـ كاتو من أوتيكا .

وفى نحو ١٤٥ ق.م. طرد عدد كبير من المفكرين من الإسكندرية على يد بطلميوس الثامن ومن بينهم ارستارخوس مدير مكتبة الاسكندرية نفـسه ، ومن ثم فقد قرر بعضهم التوجه إلى برجاموم والعمل فى مكتبتها مع كريتس. وكان من بين هؤلاء الذين توجهوا إلى برجاموم بعد أزمة الدراسات الأدبيـة الأولى أبوللو دوروس الاثينى تلميذ ارستارخوس البارز ومنيكيولـوس مـن بارسى .

ولابد من الوقوف برهة أمام ظاهرة تزوير الكتب فى برجاموم فى تلك الحقبة بسبب مكتبة برجاموم ذلك أن حمى جمع الكتب لتلك المكتبة وحمـى المنافسة الشديدة مع مكتبة الاسكندرية قد قـادت الأتـاليين إلـى محاولـة الحصول على الكتب النادرة والقيمة والأصيلة بأى ثمن وبأية طريقة مما حدا كما أسلفت بورثة نليوس إلى إخفاء مجموعات كتب أرسطو وثيوفراسـتوس فى كهف حتى تكون بمأمن عن أيدى ملوك برجاموم الطويلـة ، وقـد أدى تلهف هؤلاء الملوك للحصول على الكتب إلى قيام البعض بتزويـر وتقليـد الأعمال القديمة واصدار طبعات غير شرعية وربما كان جـالينوس الأكبـر

المشار عليه أنفا هو أفضل من كتب بالتفصيل عن تلك القضية وحيث كان هذا الرجل خبيرا بكل ما يتعلق بالكتب ويذكر لنا على سبيل المثال ان مكتبة برجاموم أشترت مخطوطة (خطب) ديموثينز وكانت هذه النسخة أكمل من تلك الموجودة فى مكتبة الاسكندرية وتضمنت معلومات جديدة لا توجد فى النسخة الأم التى كتبها المؤلف بنفسه وقد أثار ذلك شكوك الباحثين وأتضح بعد ذلك أن نسخة برجاموم مزورة . ومثال آخر على التزوير نجده فى كتاب (المجموع الأدبى التاريخى) الذى نسب إلى كراتيبوس الذى زعم أنه معاصر لـ : ثيوكيديديس واتضح ان العمل نسب زورًا وبهتانا إلى هذا الأخير . وهناك من النماذج والأمثلة ما هو أكثر بكثير من المثالين السابقين.

ومن الأحداث المهمة فى حياة مكتبة برجاموم ما أخبرنا به فارو ماركوس فارو ١١٦٠ – ٢٧ ق.م.) من حدوث منافسة كبيرة بين المكتبتين العظيمين : مكتبة الاسكندرية ومكتبة برجاموم مما حدا بـ بطلميوس الخامس إلى حظر تصدير ورق البردى إلى برجاموم لإحباط مساعى يومينس الثانى فى تطوير مكتبته . وقبل فى هذا الصدد أن برجاموم قامت بتطوير صناعة الرقوق بديلا عن البردى فى كتابة ونسخ الكتب . ويقال أن كريتس مدير مكتبة برجاموم كان له دور كبير فى هذا الصدد بل وسعت برجاموم إلى تصدير الرقوق إلى روما ونحن نعلم أن الرقوق حلت محل البردى عالميا اعتبارا من القرن الرابع والخامس للميلاد . وتذكر بعض المصادر ان حظر تصدير البردى لم يكن كاملا لأن برجاموم استطاعت الحصول على البردى من خلال دولة وسيطة .

لقد أسعدنا الحظ بالحصول على معلومات أكثر عن مقر ومبانى مكتبة برجاموم بعد أن كشفت الحفريات التى أجريت فى أكروبوليس برجاموم عن مكان ومبنى المكتبة . وربما كانت مكتبة برجاموم هى المكتبة الوحيدة فى الحقبة اليونانية التى حصلنا على معلومات يقينية عن مبانيها وعمارتها

وتصاميمها وملامحها وتجهيزاتها . وإن لم تسعفنا تلك الحفريات بشئ من مقتنياتها . والحقيقة أن الدراسات التى أجريت حول هذا الكشف الأثرى العظيم قد صحح تصورنا وفكرتنا عن المكتبة اليونانية حيث كان تصورنا القديم أن المكتبات اليونانية كانت عبارة عن حجرات صغيرة معزولة وغير ودودة وهى الصورة التى نقلها لنا أفثونيوس عندما وصف مكتبة السيرابيوم فى الاسكندرية . ولكن بعد هذا الكشف الأثرى يمكننا القول مطمئنين بأن، القائمة الرئيسية فى أية مكتبة يونانية كبيرة (مثل مكتبة الاسكندرية ومكتبة برجاموم كانت تتألف من صالة تذكارية يسودها تمثال كبير لأحد الآلهة أو الإلهات وغالبا ما يكون تمثال أثينا يقوم على قاعدة مهيبة فى مواجهة المدخل الرئيسى للمكتبة مباشرة ، وعلى طول الحوائط والخلفية والجانبين كانت هناك منصة حجرية ضيقة تقوم فوقها خزائن الكتب وكانت عبارة عن دواليب خشبية مغلقة ترتفع بطول مترين وفوقها نوافذ عالية تسمح بدخول كمية كبيرة من الضوء الطبيعى . وهذه القائمة الرئيسية تستخدم للقراءة والاطلاع وفى نفس الوقت للمحاضرات والندوات والمناظرات والاحتفالات الرسمية . ومن الواضح أن كمية صغيرة من رصيد كتب المكتبة هى التى كان يمكن اختزانها فى تلك القاعة لأنها بطبيعة الحال لم تكن تتسع لمئات الآلاف من اللفافات التى كانت المكتبة تضمها ، ومن هنا كان لابد من وجود قاعات أخرى ربما صغيرة ليست بالضرورة فخمة من الناحية المعمارية ، تختزن فيه النسبة الأكبر من المقتنيات وربما لم يكن يسمح للقراء بالدخول إليها . ومن المتوقع بالضرورة أن يكون هناك منسخ وقاعات للدراسة وقاعات للعاملين للقيام بوظائفهم من تزويد وفهرسة ومكاتبات ومراسلات وتصريف الشئون الادارية .

ويرى الثقاة أن المهندسين المعماريين فى تصميمهم للمكتبات اليونانية القديمة كانت تواجههم مشكلتان أساسيتان متداخلتان : ١ - حماية المجموعات

من الأخطار الطبيعية على وجه الخصوص . ٢ – ضمان دخول أكبر كمية من الضوء الطبيعى . ولقد كانت الرطوبة وما تزال من أعدى أعداء الكتب وربما كان ذلك هو السبب الرئيسى فى حفظ لفافات البردى فى خزائن مغلقة خشبية بعيدة عن الجدران وذلك لوقاية الخزائن الخشبية واللفافات من أن تطولها الرطوبة التى تتشربها الجدران وتلك التى تدخل من خلال النوافذ المفتوحة ، وطالما كانت هناك نوافذ واسعة لادخال الضوء فقط كانت هناك كوى (جمع كوة) أو أروقة مفتوحة من الأمام لحماية الكتب من أخطار المطر والأتربة العالقة فى الهواء وحيث لم يستخدم الزجاج فى النوافذ قبل القرن الأول قبل الميلاد.

مكتبة آى خانوم : آى خانوم هو إحدى الممالك الكثيرة فى شمال شرقى أفغانستان الآن (قديما بكتريا) والتى كان يمر بها طريق الحرير . وكانت هذه المكتبة الأرشيف أحد أقسام قصر الحكم وكانت قائمة بذاتها مستقلة ، وقد كشف رجال الآثار الفرنسيين عن مدينة آى خانوم والتى ترجع إلى القرن الثالث قبل الميلاد والتى تعتبر من أقصى وأبعد المناطق التى وصلت إليها اليونان . وقد كشفت الحفريات الفرنسية عن ملاعب رياضية ومسرح ومخبأ مكتوب عليها إهداء إلى مؤسس المدينة . وكان هناك أيضا عمود سوارى عليه مجموعة من أقوال دلفية (نسبة إلى مدينة دلفى اليونانية) منقوشة على قاعدة العمود على يد الفيلسوف المشائى كليرخوس من سولى ، مما تؤكد معه تلك الكتابات أن آى خانوم كانت على صلة وثيقة مع المراكز الفكرية التقليدية فى العالم اليونانى .

والمكتبة الأرشيف التى وجدت فى القصر، أمر بتأسيسها الملك أوكراتيديس الذى كان معاصرا لملك بارثياميتراديتس (القرن الثانى قبل الميلاد) . والملمح اللافت للنظر فى مجمع هذا القصر هو ذلك البهو المربع المعمد ذو الباب المفتوح على جانب واحد والذى يقود الى ردهة أصغر . هذا

البهو كان مفتوحا على مجموعة من الغرف التى تستخدم كمحلات ودكاكين بعضها كان يبيع البضائع الثمينة الفاخرة مما حدا بالأثارين الفرنسيسين إلى وصف مجموعة هذه المحلات وصفا جماعيا بأنها (الكنز) وبين البهو الكبير والردهة أو البهو الصغير كانت هناك قاعة مستطيلة تستخدم مكتبة أرشيفية .. ولم تكن مكتبة عامة ولا حتى مكتبة أكاديمية للدرس والبحث بل مكتبة وأرشيف ملكيين كجزء متكامل من القصر . ومن حسن حظنا أن المكتشفين وجدوا فى هذه القاعة قطعا متناثرة كثيرة من البردى والرق كتبت عليها أجزاء من نصوص فلسفية ومحاورات وإحدى المسرحيات . وكان الشئ اللافت للنظر فى هذه القاعة الطريقة المستخدمة فى اختزان الوثائق وحيث لم تكن هناك خزائن للكتب من أى نوع سواء مضافة إلى القاعة أو مبنية داخل الجدران أو مبنية بذاتها ولكن بقايا من جرار طينية مكسورة متناثرة على أرضية القاعة مما يكشف عن أن اختزان لفافات البردى والرفوف كان يتم فى تلك الجرار ، على نحو ما كان معمولا به فى مصر القديمة .